سلسلة شبهات وردود.....

كلمات في نظرية التطور

عماد علي الهلالي

الطبعة الثانية

١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦م

من أهداف مركز عين:

مركز "عين" للدراسات الفكرية المعاصرة، يعنى بتفاعلات الواقع الإسلامى، ويحاول أن يؤصل للحلول والمقترحات تجاه مشكلات الإنسان المعاصر..

كما وينطلق من رؤية راسخة بقابلية الحضارة الإسلامية على قيادة الحياة وتقديم نموذج يتناسب مع احتياجات العصر من غير أن ينقطع عن أصوله ومنطلقاته وثوابته..

يسعى المركز ضمن برامج بحثية وهموم ثقافية ودورات لكتابة البحوث وتصديرها، لتعزيز الوعى الاجتماعى بقضايا الثقافة والأفكار ومناقشة مطاريح التخلف والتسيد لقيم غير أصيلة فى المجتمع..

ليس من أهداف المركز أو مطاريحه الاعتناء بالتبشير الطائفى، ويؤمن أن ما يحدث اليوم هو طائفية سياسية تسعى لتجيير كل الدين والإنسان فى أتون معركة مصالح دنيئة.. ولا نمانع من دراسات تنطلق من التسامح فى التعايش والإيمان بمشتركات الإنسان دون إلغاء الآخر مع الاحتفاظ بالرصانة العلمية وشروطها..

كما يؤمن المركز أن الحلول الإسلامية تنطلق من جذورها المناسبة، ولهذا فهى تحاول التأسيس من منطلقات اسلامية خالصة، بعيداً عن كل التحيزات المحيطة..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين.

هذه مجموعة مقالات في (نظرية التطور لجارلس دارون)، حاولنا فيها تهذيب المواقف من هذه النظرية التي حاول الفكر الملحد المراهنة عليها في ضرب الإيمان بالله تعالى حتى شوهوا أصل النظرية وحملوها فوق طاقتها، وحاولوا تضخيمها بشكل جلب الانتقاص للوسط العلمي الذي عُرف عنه نقد النظريات في كل يوم واستبدالها بالنظريات الصحيحة كلما كشفت الوقائع بطلان شيء منها. وأصبح موقفهم هذا مثاراً للسخرية والهزء من قبل المختصين، وأصبح تعصب أنصار نظرية التطور عاراً على الفكر البشري العلمي.

وتدخلت المؤسسات السياسية والأجندات الماسونية والقوى الإلحادية لكي تجعل هذه النظرية تقف على قدميها بتكلّف منذ أكثر من (١٥٠) سنة بشتى أنواع الأكاذيب والتدليسات حتى زوروا بقايا العظام وغشّوا الدارسين، مثل موقفهم في تزوير جمجمة جعلوها تبدو وكأنها حلقة وسطية بين الإنسان والقرد وتم تقديم (٥٠٠) دراسة دكتوراه بناءً على تلك الجمجمة المزيفة حتى

سُحبت الجمجمة فيما بعد من المتحف وتبين أثر الجبس فيها، ثم لم يُعَد النظر في تلك الدراسات العلمية الكثيرة التي غذّت الفكر العلمي بالأفكار والانطباعات الخاطئة ولم يتم تصحيح الرأي العلمي الذي بني عليها.

إلى غيرها من المواقف والترجمات المزيفة والترويج في البلدان الإسلامية والخيانات العلمية، والإجراءات التي تتخذ لتكثير أنصار هذه النظرية ورمي منتقديها بالتخلف ومخالفة البديهات، مع أنها نظرية مهلهلة وقديمة لا يقبلها أنصاف المثقفين، فمن منا يقرأ قول دارون -أن الدببة التي كانت تحاول صيد الأسماك تحولت إلى الحيتان- فيقبله بعد ثقافة الهندسة الوراثية المعاصرة؟، وقد يُعذر دارون في زمانه على مثل هذه التأملات ولكن كيف يعذر العالم المعاصر الذي يعرض نظرية التطور الدارونية لطلبة العلم وكأنها بديهية من بديهيات العلم أو كأن علم الأحياء بأجمعه يرتكز عليها! إنها لا شك الخيانة العلمية وعدم الإخلاص الذي يكاد التأريخ العلمي يصرخ من أذاه ويشمئز من زيفه.

إن نظرة واحدة لسمكة السُلكانت تكشف لك عزيزي القارئ عن سر ضعف هذه النظرية وطبيعة تفكير أنصار التطور، فإنهم يستنتجون المسألة من بين مئات الاحتمالات ويسوقون

التفكير ظناً وتخميناً، فهم حين رأوا شكل متحجرة هذه السمكة وعرض جسدها وطول زعانفها خمّنوا أن الصدر العريض بداية لتطور تلك السمكة لتكون لها رئة كبيرة، والزعانف الطويلة قد تتطور لتصبح أذرعاً.

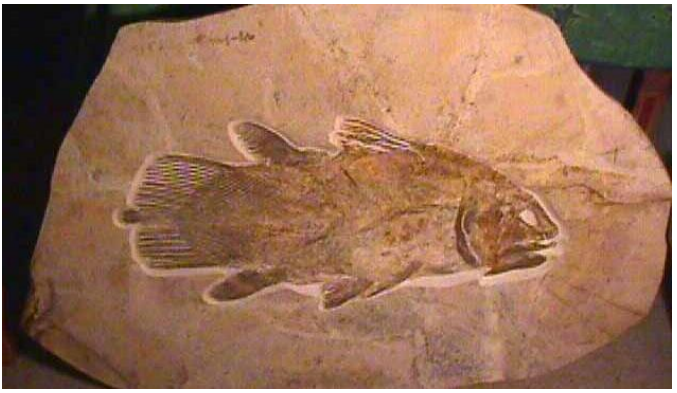

وما أبسط الرد عليهم حين تظهر هذه السمكة حية بين يدي صيادٍ أو تسبح في البحر لتكشف عن خطل نظرية التطور فهذه السمكة لم تتطور منذ ملايين السنين ولم تتحول إلى مخلوق آخر رغم طول المدة.

ويتضح لكل عاقل بعد هذا أن التخمين والظن هو وسيلة الإثبات الوحيدة التي يتخذها أنصار التطور، ويملأون وسائل الإعلام بالرسوم ثلاثية الأبعاد التي تظهر مراحل التطور حتى يظن المتلقي وكأن تلك الرسوم هي واقع ما حصل فعلاً، ثقةً بالوسط العلمي وبوسائل الإعلام التي لم تكن في يوم من الأيام مخلصة في ما يخص نقل الحقائق العلمية التي تؤيد الدين والعلم الحقيقي.

وقد كانت هذه المقالات كتابات كتبتها على صفحتي في الفيس بوك لبعض من طلب مني ذلك، ثم آثرت جمعها في كتيّب بسيط لتعم فائدته ويتسلح به طلبة العلم أمام الترويج لهذه النظرية الذي شاع عندنا قبل سنوات بيد المؤسسات الإلحادية المنتمية

للقوى الماسونية التي وردتنا تحت عباءة الاحتلال الأمريكي، وبدأت بنفث سمومها من لسان هذا وذاك من مختصين ومهرجين، وإنما حجتهم العلمية ضعيفة كما سيتبين، والحجة الرئيسية التي يتخذونها لإضلال شبابنا وكسبهم هي الشهوات التي يمنعهم منها الالتزام الديني، ويعانون بسببها من الصراع بين ضمائرهم الطرية ونداء الشهوات ووخز الذنوب، فيفرّون لفكرة الإلحاد لعلّهم يخدّرون هذا الصراع الداخلي، وإنما حالهم هنا مثل حال من تؤلمه يده فيقوم بقطعها، وكان الأفضل لهم أن يقتصروا على الذنوب الخارجية بدل دفن ضمائرهم وحياتهم الحقيقية نهائياً، ولكن البعض ومع بالغ الأسف والحسرة حين ينهار جزءٌ منه ينهار بناؤه بأكمله.

ومع ذلك ولإكمال الحجة وتنبيه النفوس ارتأينا كتابة هذه المقالات رغم ما تقدم من وهن حجة أنصار التطور وضعف دليلهم العلمي: [وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ] (الأعراف : ١٦٤).

ولا زالت المقالات في صفحتي على الفيس بوك (www.facebook.com/emadalialhlaly)

وفيها تعليقات قيمة لعدد من الإخوة وتأييدات وإعجابات من بعض المختصين، كما أن نفس هذا الموضوع (نقد نظرية التطور) توجد فيه الكثير من المصادر بإمكان المتتبع جمعها، علماً أننا اختلفنا في منهج النقد شيئاً قليلاً عنهم، ولعل القارئ سيلاحظ ميزة هذه المقالات، وعلى الله قصد السبيل.

ما هي هذه النظرية؟ وما هو دورها في علم الوراثة الأحيائي وفي الثقافة العامة؟

اسم النظرية: نظرية نشوء الأنواع بالانتخاب الطبيعي، أو تطور أنواع الأحياء بالانتخاب الطبيعي.

واضع النظرية: جارلز دارون (Charles Darwin)

سنة صدور النظرية: ١٨٥٨:

ملخص النظرية:

تتألف النظرية من ملاحظة وتفسير، فملاحظة دارون كانت أنه رأى أنواعاً متعددة من الأحياء وسجل منها نماذج الطيور المتشابهة بالتركيب الجسدي والمختلفة بأشكال المناقير التي تسمى طيور الحسون، ولاحظ أن منقار كل منها يناسب طبيعة الطعام الذي يتناوله. ثم فسّر ذلك بأن لها أصلاً واحداً جاءت منه ولكنها لمّا انتقلت إلى أماكن جديدة واختلفت طريقتها في التغذي: تكيفت مع الوضع البيئي الجديد فحصلت تغيرات في تركيبتها وانتقلت تلك التغيرات عبر أجيالها.

ثم توسع في الاستنتاج بتمديد نموذجه زمانياً ليفسر أصل جميع الأنواع، ومما فسّره نشوء الحيتان من تكيّف الدببة التي كانت تحاول اصطياد الأسماك على الشاطئ فتكيفت شيئاً فشيئاً

حتى صارت حيتاناً. ثم بُني على هذه النظرية تصور تطور الإنسان من بعض أنواع القردة.

ثم أضاف تصوراً مفاده: إن الأنواع التي لم تتكيف هلكت في هذا الصراع من أجل البقاء مع البيئة والأجناس الأخرى وبقيت الأجناس الأقوى.

ولم يكن متحف التأريخ الطبيعي يومها غنياً بالمتحجرات فيسعفه بالنماذج المؤيدة لنظريته التي تثبت الحلقات الوسطية بين سلالات الكائنات، كما لم تكن الهندسة الوراثية علماً وقتها ليختبر انتقال الصفات المكتسبة بالتكيف عبر الأجيال الذي ثبت حديثاً أنه بواسطة الدي أن أي (DNA)، ولم يكن علم الجيولوجيا متيناً لإعطاء تصور عن عمر الطبقات الأرضية ولا النشاط الإشعاعي للكاربون (١٤) (C^{14}) لقياس عمر المتحجرات، ولا المجهر الضوئي ولا غيرها من التقنيات الحديثة التي كانت غائبة في ذلك الزمان، ولم يكن علم الاحتمالات والإحصاء معتمداً في التحليل العلمي لتكتشف احتمالية حصول الأحداث التي تصورها دارون في عمر الأرض، وكل ذلك أوجد ثغرات في النظرية، عرضتها لبعض الانتقادات المهمة.

وكانت للنظرية جذور فكرية وأفكار مشابهة أثّرت في توجيه تفكير دارون حاله حال أي مفكر آخر، بعضها من الثقافة العامة وبعضها من علوم أخرى مثل تأثره بمقالات عالم الاقتصاد توماس مالثوس (Thomas Malthus) بشأن المجتمعات البشرية عندما تمر بها ظروف الإنتاج الغذائي الصعبة فيموت الضعفاء والمرضى جرّاء النزاعات والأقوياء فقط هم من كانوا يعيشون، فطبق هذا المفهوم في عالم الأحياء في مفهوم (البقاء للأصلح) وذلك لأن المنهج العلمي لم يكن واضحاً في ذلك الزمان فيفصل بين نموذج العلوم الاجتماعية ونموذج العلوم البايولوجية.

وفي ذلك الوقت كان الصراع قائماً بين الكنيسة وأعدائها السياسيين، وكذلك كانت الشيوعية تحاول إثبات أفكارها في إنكار الخالق، وكان بعض قادة أوربا يعزف على التمييز العرقي وأن شعبه هو الشعب الأرقى وأن الأنواع المتخلفة الأخرى من الإنسان في الشعوب المستعمرة ينبغي إزالتها، فوجدت هذه النظرية من يؤيدها بشكل مبالغ فيه بعيداً عن الروح العلمية إلى الدرجة التي زُوّرت فيها الآثار ودفعت الأموال وتحزبت الأكاديميات، ولا زالت تلك الصراعات قائمة والأساليب غير الشرعية موجودة.

وسترى في تتمة كلامنا بإذن الله تعالى أن الحرب بين نظرية التطور والدين لا مسوغ لها، وأن الإيمان بالتطور لا يعني نفي الخالق الذي أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها سواء كانت تلك الأسباب الانتخاب الطبيعي أو الصراع من أجل البقاء أو نظرية الخلق، أو غيرها.

كما لم يخلُ بعض أعداء النظرية في الغرب الذين تحمسوا للدين ضدها من ارتكاب بعض الهفوات، وستجد بإذن الله تعالى أنه لا حاجة لها مطلقاً مع وجود اللغة العلمية الدقيقة والأجواء المناسبة لطرح أي فكرة، نعم هم ربما استفزتهم أساليب بعض الملحدين الذين يستخدمون تعابير استفزازية كالعادة في مواجهة كل ما هو ديني فسرت العدوى بين العدوّين.

ومن الملاحظ بغرابة أننا نجد جارلز دارون أقل تحمساً لنظريته من أتباعه، وتراه يشير بنفسه إلى الثغرات في نظريته والمحتملات الأخرى وما يمكن أن يضيفه الاكتشاف العلمي إليها أو ينقضه منها، فتراه يفعل ذلك بكل روح علمية.

نعم يؤخذ عليه تأثره بمؤثرات غير علمية مثل تعميم نموذج الصراع الاقتصادي لعلم الأحياء كما تقدم ولكنه لم يكن منفعلاً في طرح نظريته ولا مستعجلاً.

رغم أن نظريته أثرت في الثقافة العامة كثيراً منذ ذلك اليوم وإلى هذا اليوم وكانت من أعظم المؤثرات في تفكير هتلر والشيوعيين والملحدين وغيرهم وما ارتكبوه من جرائم برروها بمظلة التطور والصراع بين الأنواع، ولا زالت بعض بلدان أوربا والولايات المتحدة تعتبر نفسها الجنس الأرقى في النوع الإنساني ويبررون لأنفسهم احتقار الشعوب الأخرى واستغلالها وحتى إفناءها.

وقد قدم بعض أنصار نظرية التطور عدة محاولات لتقويمها وتعويض الثغرات، مثل استبدال آلية التكيف بين الأجيال بآلية الطفرة الوراثية، بيد أن التقدم في علم الوراثة والكيمياء الحياتية أوهن هذه المحاولات أيضاً، ولكننا سنناقش في البدء نظرية التطور نفسها لنعرف قيمتها الاحتمالية من الناحية العلمية فنتعرف حال الأفكار التي ارتكزت عليها.

أما بالنسبة لدورها في علم الأحياء فهو إعطاء الفكرة لتطور الأنواع القديمة، ولم يلاحظ أحد الباحثين حصول ظاهرة تطورية تبتنى على هذه النظرية، وليس لها تطبيق عملي في علم الوراثة رغم ما يعبر به بعض أنصارها من تعابير حماسية مثل قول كيندال

هيفن[1]: (الاكتشاف الجوهري والأهم في علم الأحياء والبيئة الحديثين وهي ما زالت تشكل أساسيات فهم العلماء بتأريخ تطور الحياة النباتية والحيوانية. لقد ردت نظرية دارون على عدد لا يحصى من الألغاز التي حيرت علماء الأنثربولوجيا والإحاثة، وفسرت الانتشار الواسع والتصميم المميز للأنواع والأنواع الثانوية .. وكانت كتبه الأكثر مبيعاً على أيامه ولا تزال تحظى بشريحة واسعة من قراء اليوم) وهي تعابير كما ترون نشأت من ضيق الخناق ولو أنه وجد أمثلة تطبيقية وفوائد شاخصة لذكرها بدل هذه الكلمات التي تليق بالساحة السياسية والجماهيرية أو المنابر الشعرية.

من سبق دارون في التفكير بالتسلسل والتطور:

لم تكن فكرة تطور الكائنات قفزة معرفية مفاجئة لدى دارون فقد سبقتها أفكار أخرى وثقافات عامة، ونظريات مشابهة، حتى وصف دارون بعضها بأنها جاءت بجميع ما جاء به .

(١) أعظم ١٠٠اكتشاف علمي على مر الزمن، صفحة ١٢٨.

فقد كانت فكرة بدء الحياة من أشكال بسيطة من الأحياء من موروثات الفكر اليوناني، مثل ما نقل عن طاليس بأن (مياه البحر هي: الأم التي نشأت منها كل أنواع الحياة).

وقال أناكسمندر: (إن الحياة نشأت من الطين على شكل سمكة مزودة بأشواك خارجية).

ونسب إلى غيرهما أن الحياة بدأت بالنبات وتطورت إلى النباتات الحيوانية ثم الحيوانات ثم بخطوات متطورة وئيدة إلى الإنسان.

وكانت هناك فكرة عامية لدى أوساط الناس يستشهد بها الماديون لإثارة شكوك الناس مفادها أن الحياة من الممكن أن تنشأ من دون خالق مثلما ينشأ العفن واليرقات من بقايا الطعام الفاسد. وكانت هذه الشبهة سارية إلى أن اكتشف لويس باستير أن تلك اليرقات تنشأ من بيوض مختزنة وليست من نفس الطعام.

أما في الإطار العلمي فقد أصدر لامارك (١٧٤٤-١٨٢٩) في الثورة الفرنسية بيانا بعد دراسته للحيوانات اللافقرية (عام ١٨٠١) ومفاده فكرته أن التغير الذي ينتاب الأشكال المختلفة من الحياة (حتى الفقريات) ينتج مباشرة عن ضغوط البيئة، فالزرافة مثلاً

التي لا تجد غذاءها إلا في أوراق الأشجار المرتفعة تمتد رقبتها وتنتج صغاراً لها رقبة طويلة.

وأشار جيوفري سانت هيلاريام ١٧٩٥ -كما نقل عنه ابنه- أن ما نسميه أنواعا ما هي إلا تفسخات مختلفة عن نفس الطراز. ولم يتم نشر شيء عن تلك الفكرة إلا عام ١٨٢٨ أي قبل نشر نظرية التطور بعقود.

وقد سطر مقدّم كتاب (أصل الأنواع) المترجم في نسخة المجلس الأعلى للثقافة مجموعة كبيرة من أسماء البحوث التي سبقت نظرية التطور.

حتى أنه ذكر أقوالاً لإخوان الصفا في معنى التطور وتقسيم ابن مسكويه الخازن (توفي ٤٢١هـ) مراتب النباتات إلى ثلاثة تبدأ من الفطريات والطحالب وتنتهي بالنباتات البذرية .. ثم تنقلب النباتات إلى الصورة الحيوانية التي لها حس عام.. وقال بأن الإنسان ناشئ من آخر سلسلة البهائم..

ومن الممكن مراجعة تلك الأقوال السابقة لدارون في مقدمة الكتاب المذكور، وفي غيره من الكتب، والمهم أننا أردنا الإشارة إلى أن فكرة التطور قد ترد في الأذهان عند التأمل البسيط، سواء وفق منهج التفكير اليوناني أو المنهج الغربي.

وليست فكرة التطور وليدة التحرر من التفكير الديني ولا دلالة مباشرة لها على نفي الخالق فقد قال بها البعض مع إخضاعها للإرادة الربانية أي أن التحولات بين الأنواع تمت بيد القدرة الإلهية لخلق أنواع جديدة من أنواع سابقة كما هو مذكور في المصدر أعلاه.

علماً أن تلك الأفكار السابقة قد تذكر لأجل تأصيل نظرية التطور لرفع الاستغراب من العقول بشأنها، إلا أنها في نفس الوقت تكشف عن سر معين في التركيز على دارون دون غيره من قبل بعض الجهات والشخصيات الإلحادية لتسخير نظريته لدعم الإلحاد حتى تحولت النظرية إلى دين وسلطة فكرية وسلاح لمواجهة الإيمان بالله، ومن الممكن لأي قارئ أن يطالع كتاب أصل الأنواع وكتاب لأي ملحد يتسلح بها، فيرى أن حماسة دارون لنظريته أقل من حماسة المدافعين عنها، وإيمانه بنظريته أقل من إيمان الملحدين المدافعين عنها، حتى زوروا الآثار واجروا الاتفاقات وتعصبوا في الجامعات وتكلموا بما لا يليق بأي باحث النطق به، وأغرقوا المدارس ووسائل الإعلام والتعليم وأفلام الكبار والصغار بفكرة التطور لترسيخها في أذهان العامة، مما يدل بالتأكيد أن الغرض من هذا الدعم الهائل لها هي الهيمنة الاجتماعية لا الحقيقة

العلمية المجردة، ولو أن تلك الجهود بذلت لتعليم الناس النظرية النسبية أو معطيات الفيزياء النظرية الحديثة لأحدثت نقلة كبيرة في الثقافة العامة.

ما هي مؤيدات نظرية التطور؟

سنقسّم الحديث هنا عن مؤيدات نظرية التطور من خارج الوسط العلمي ومؤيدات من داخله، لاختلاف القسمين في الدوافع والمناهج والغايات:

مؤيدات من خارج الوسط العلمي:

حظيت نظرية (التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي) بشهرة كبيرة وتأييد واسع، وكانت لذلك التأييد أسباب غير علمية أحياناً، لأن كثيراً من الجهات والمؤسسات الاجتماعية كانت تستند على أفكار هذه النظرية وعلى شخصية دارون لدعم أفكارها وأدبياتها في صراعها السياسي والاجتماعي مع الآخرين.

فالشيوعيون كانوا ينتظرون ما يؤيد إلحادهم ضد الفكرة الدينية لأنهم يقولون بأصالة المادة وأن الروح والظواهر الروحية أصلها المادة ونشأت من ديالكتيك (صراع) النقائض.

وأعداء الكنيسة يريدون الزيادة في نكايتها بهدم أساس الدين وأحبوا أن يكون ذلك بمعول العلم، وهم يوجهون -ولا زالوا- كل إنجاز علمي بتوجيه يجعله في أعين الناس معارضاً للدين فيقوضوا بذلك ثقة الناس بالكنيسة التي لم تزل تؤثر في المجتمع بشكل يضعف سلطة الحكومات العلمانية (الإلحادية) يومئذٍ.

وقد قلنا إن عدداً من الأطروحات سبقت دارون إلى القول بالتطور (ومنها بحوث والاس التي قال عنها دارون: أنها تضمنت كل ما يريد قوله) ولكنها رغم ذلك لم تُسلَّط عليها الأضواء بما يكفي، والسبب برأيي أن أصحاب تلك النظريات كانت لديهم مواقف واضحة من الدين فلم يكن من الممكن التأثير عليهم لضمهم في المعركة ضد الكنيسة أو ضم نظرياتهم وتسخيرها لصالحهم دون أن يعلقوا على ذلك التسخير أو يعترضوا عليه.

وتشير البحوث التي كتبت عن كتابه أصل الأنواع أن الكتاب كتب تحت إلحاح بعض أصدقائه، والأسباب المذكورة لإلحاح أولئك الأصحاب على دارون لتأليف كتابه ونشر أفكاره كانت بحسب ما يُذكر أنهم خافوا أن تنسب النظرية إلى غيره واقترحوا على دارون عدم نشر بحوث والاس التي بعثها إليه

لينشرها عن طريقه في إحدى الصحف العلمية، ولكن دارون أِنف من هذا العمل الدنيء وهي روح علمية يحمد عليها إن صحّت الرواية.

بل وصل التأثير على دارون إلى أن غَيّر مصطلح الانتخاب الطبيعي (Natural Selection) إلى البقاء للأصلح (Survival of the fittest) بتأثير صديقه هربرت سبنسر (Herbert Spencer).

ومن الواضح لمن تأمل أن مصطلح الانتخاب الطبيعي يشير إلى شيء من الحكمة الفوقية للطبيعة الأمر الذي يُتحسس به شيء من الإيمان بالغيب، أما مصطلح البقاء للأصلح فلا يتضمن تلك الإشارة (الميتافيزيقية)، إلا أن سائر الكتاب يمكن للمتفحص أن يتتبع فيه إيمان دارون بتلك الحكمة الفوقية كما سترى بعد قليل – بإذن الله تعالى- في جوابه عن إشكالية افتراق المرأة عن الرجل في شعر الجسد.

ولم يُتَح لنظرية غير التطور مثل ما أتيح لها من ترويج إعلامي حتى أصبحت مقرراً رئيسياً في المدارس، وأصبحت الصور الخيالية التي تمثل الحلقات الوسطى للكائنات –رغم عدم واقعيتها- أصبحت تلك الصور تمثل جزءاً من ثقافة الناس الشعبية

مع ما فيه من إقحام معقّد لأفكار اختصاصية في الثقافة العامة التي لا تعرف هذا العمق، وأصبحت فكرة التطور متضمَّنة في الأفلام السينمائية وأفلام الكارتون، وأصبحت نظرية التطور عنواناً لفئة من علماء الأحياء يتعصبون لزملائهم في إطاره وينافسون غيرهم ممن لا يقول بها حتى ولو اتفق معهم في كثير من الأفكار الأخرى.

وسترى من الأساليب غير المنصفة التي اتخذها بعض أنصار النظرية شدة تلك المنافسة وتأثيرها على الوسط العلمي، وعدد المتحجرات المزورة التي عرضت كأدلة على الحلقات الوسطية للتطور بين القرد والإنسان، وكيف أن كثيراً من الدراسات العلمية ضُللت بدراسة عينات مزورة سُحبت فيما بعد من المتحف الطبيعي مع ما في ذلك التزوير من خيانة علمية وتضييع للجهود العلمية للدارسين واستخفاف بعقولهم.

وكانت نظرية التطور منسجمة مع كثير من التوجهات النظرية التي كان ساسة الغرب يعتمدونها لتبرير سياساتهم، فمن جهة كانت بعض الاتجاهات الغربية تروج لفكرة استعمار الغرب للشرق وتبرر جرائمها في الدول المستعمرة فأصبح العرب والهنود أقل تطوراً من الغربيين والأفارقة السود -كما ذكر دارون نفسه في كتابه عن أصل الإنسان- هم الحلقة بين القرود والإنسان، وكل

ذلك سيبرر قتلهم لأن البقاء للأصلح ومتوالية الغذاء أبطأ من متوالية التكاثر لذا لا بد من إزالة الأجناس الأقل تطورا.

والألمان يرون أنهم الجنس الآري الأعلى وغيرهم أقل منهم رتبة فوجدوا بنظرية دارون صياغة علمية لأفكارهم، وهكذا.

فنظرية التطور كانت التعبير العلمي عن أفكار كثيرة كان أصحابها ينتظرون من ينطق عنهم بما في قلوبهم، ويعرف ذلك من حماسة كارل ماركس في مراسلته مع دارون حيث عبر بعبارات الإعجاب والثناء بما لا يعبر به مفكر لفكر آخر عادة.

بل إن دارون نفسه كان متأثراً بأفكارٍ من غير الوسط العلمي مما يشكل خلطاً منهجياً في تفكيره بين منهج الاستدلال في علم الأحياء ومنهج الاستدلال في غيره قال كيندال هيفن عند تطرقه لنظرية التطور في كتبه (قصة أعظم ١٠٠ اكتشاف علمي) : (لدى عودته (دارون) إلى بلاده إنجلترا قرأ دارون مجموعة من مقالات عالم الاقتصاد توماس مالثوس والتي أوضح فيها ما كان يحدث للمجتمعات البشرية عند عجزها عن إنتاج ما يكفيها من الطعام، فالشرائح الأضعف كانت تموت جوعاً ومرضاً أو جراء النزاعات، الأقوياء منهم فقط كانوا يعيشون. آمن دارون بانطباق هذا المفهوم على عالم الحيوان كذلك (البقاء للأصلح)).

وقد قلنا أن هذا المصطلح ليس منه بل هو من اقتراح سبنسر، ولعل في الأمر ما يؤيد ما ذهبنا إليه من تأثير اتجاهات فكرية من خارج الوسط العلمي على دارون، وإلا فما علاقة النموذج الاجتماعي بعلم الأحياء؟!.

ويذكر أيضاً أن دارون لاحظ أن متوالية تكاثر الأحياء متوالية هندسية أسرع من متوالية نمو مصادر الغذاء التي هي متوالية عددية مما يؤدي إلى صراع مستقبلي على الغذاء فلا بد من آلية طبيعية تحفظ وجود الكائنات وهي الصراع والبقاء للأصلح.

وهي كما ترون فكرة دخيلة على التفكير العلمي، واختصاص دارون لا يساعده على معرفة طبيعة النمو الغذائي ومصادر التغذية ولا ثقافته في ذلك الحين، وإذا كان هناك تزاحم وضرورة للتكيف فما المانع أن نتصور تكيف البشر على غذاء أقل ونوع جديد من التغذية؟ الأمر الذي يُشَمُّ منه أنها فكرة سياسية ملقمة لدارون وأنها تنم عن مشاريع استعمارية لتبرير الصراع العالمي بأنه صراع لحفظ البقية الأصلح من البشر، وربما كانت هذه الأفكار الدخيلة على نظريته هي سبب شهرة النظرية وترويجها.

المؤيدات العلمية:

يهرب العقل عادة عن مناطق الفراغ في المعرفة وبؤر المجهول [وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً] (سورة الكهف:٦٨) ويفزع إلى كل ما يسد ذلك الفراغ ليعطي لنفسه فكرة عن كل شيء بدل الجهل به، لذا تُقبل النظريات عادة في مناطق الفراغ الفكرية ريثما تدعمها التجربة والملاحظة أو تنفيها.

وفي عالم الأحياء في منتصف القرن التاسع عشر حين ظهرت نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي كان هناك فراغ كبير في الثقافة العلمية عن مظاهر الأحياء والطبيعة على كثرتها وتنوعها، وفراغ فكري أكبر منه عن معرفة الحياة في العصور القديمة، ولم تكن الثقافة الموجودة يومئذٍ والأفكار التي تروّج لها الكنيسة وتتبناها قادرة على ملء ذلك الفراغ بكفاءة وعلمية مناسبة، فكانت نظرية التطور لدارون تجيب عن كثير من الأسئلة بما وسعه خيال دارون من أفكار، وهي وإن كانت خيالية في كثير منها وافتراضية إلا أنه لم يكن في مقابلها حقائق تدحضها، فكانت ثقافة مناسبة في ذلك الحين للفراغ العلمي في علم الأحياء. وللمقارنة لاحظ كيف يستهجن أي عالم بايلوجي اليوم فكرة أن الحيتان تطورت من

الدببة التي كانت تحاول أن تصطاد الأسماك في الماء، أما في ذلك الزمان فكانت هذه الفكرة الخيالية مقبولة ولا بأس بها.

وكانت الكنيسة تجعل من كل منطقة فراغ علمي وجهل لدى الناس بقعة للإيمان ومكاناً لفرض وجود الله تعالى فيه، وهو منطق بائس جداً ينم عن جهل كبير بالإلهيات وأدى فيما بعد إلى أن يعتبر العلماء كل اكتشاف علمي سحباً للبساط من الإيمان. بينما نسجل نحن الإسلاميون كل تلك المكتشفات نصراً للدين لاختلاف نظرتنا إلى الكون (آيديولوجيتنا) عنهم.

ومن المؤيدات الأخرى لنظرية التطور أن العقل يميل بفطرته لتوحيد الكثرة لأنه لا يطيق النظر إلى كثيرين في وقت واحد، فالكائنات في الطبيعة كانت كثيرة جداً ومبهرة والتنوع البيئي مثير جداً ومظاهره لا تحصى، فحينما تأتي نظرية –كالتطور– وتجعل لكل ذلك أصلاً واحداً تفرعت منه جميع الكائنات فهذه الفكرة ستناغم بالتأكيد ذلك الشعور الفطري، حتى وإن كانت غير واقعية في معرفة ذلك الأصل الواحد (المقدس)، وطالما لم يشر أي أحد في الغرب من مفكري الكنيسة إلى ذلك الأصل المقدس بوضوح كان الجواب الأول هو الأكثر جاذبية.

هذه المؤيدات في الإطار العام للنظرية أما ضمن إطارها الخاص فقد طرح دارون عدة ملاحظات ربما يجدها القارئ واقعية شيئاً ما، منها:

(١) التشابه بين الأحياء في التركيب الخارجي فيسهل على دارون فرض أنها من أصل واحد وشجرة سلالية واحدة.

وهذه الفكرة مقبولة في ذلك الحين، ولكنها اليوم أقل جاذبية؛ لأن التشابه في الأجزاء الخارجية للحيوانات يمكن أن يُفهم على أنه نشأ ليناسب كل مخلوق البيئة المحيطة به فالحيوانان اللذان يعيشان في وسط الواحد من الطبيعي أن تجد لهما أعضاءً متشابهة.

(٢) الأعضاء الضامرة التي تبدو بلا نفع في الإنسان كالزائدة الدودية والشعر على جسم الإنسان، فيسهل على دارون أن يفترض أن الزائدة الدودية كانت عضواً مهماً للإنسان حينما كان يأكل الحشائش أما وقد تطور إلى النمط الحالي في التغذية فقد ضمر ذلك العضو، والشعر الذي في جسد الإنسان ورثه من أسلافه من الثديّات واستغنى عنه في العصر الحديث.

وكانت مثل هذه الأفكار مقبولة لفقر الوسط العلمي عن الحقائق والاكتشافات التي عرفها اليوم، لأن علم الطب يشير إلى

فوائد معتد بها للزائدة الدودية في الإنسان، أما الشعر على جسد الإنسان فينقض عليه بالاستفسار عن جسد المرأة ولماذا هي أقل شعراً على جسدها من الرجل، وهل هي أكثر منه تطوراً.

وهذا الإشكال خطر على عقل دارون فأجابه ولكن ليس على أساس التطور بل على أساس ما ذكرنا من إيمانه بالحكمة الفوقية والإرادة الغيبية التي تحكم عالم الطبيعة، فقال بصدد قلة شعر جسد المرأة: (لقد كان هذا ضرورياً لجمال المرأة وجاذبيتها) وهو كما ترون يتحدث عن قانون التطور ومجرياتها وكأن وراءها يداً حكيمة وغاية عقلية وإلا فما معنى قوله أنه كان ضرورياً؟ وعن أي ضرورة يتكلم؟.

(٣) ومن الأمثلة الواقعية المشاهدة للتطور ما يراه كل شخص من تكيف بعض أطرافه مع ما يمر بها من ظروف، فتجد العامل تتضخم يده وتخشن والحمال يقوى جسده وعضلاته، وجميع الأطراف قابلة للتكيف مع ما يمر بها من ظروف كما هو مشاهد، فكان من السهل أن يفترض دارون أن تلك التكيفات تنتقل عبر الأجيال وتتراكم لتؤلف نوعاً جديداً، ولم تكن هناك فكرة عن التناقل الوراثي وعلم الجينات وقتها.

وقد اكتشف علم الوراثة بعد ذلك بسنوات جملة من قوانين التوارث ووجدوا أن الصفات المكتسبة من التكيف لا تنتقل بالوراثة عبر الأجيال، فقد قطعوا أذناب عدة أجيال من الفئران ومع ذلك لم تنتج أجيال جديدة إلا ولها ذنب، ومن الأمثلة الواقعية المتكررة في الحياة ختان أطفال المسلمين عبر القرون وختان أطفال اليهود كذلك إذ لم يؤد إلى ولادة أجيال جديدة مختونة من الولادة.

فآلية التكيف لا يمكن أن تكون هي وسيلة التطور المفترضة، الأمر الذي أصبح مسلّماً به في العلم الحديث لذا طوروا النظرية بافتراض عنصر آخر هو الطفرة الوراثية وغيرها، وسنترك مناقشتها والنقض عليها هنا؛ لأنها نظرية جديدة وليست هي نظرية دارون وإنما جعلوا فكرة الطفرة متمماً وترميماً لنظرية دارون لأنها كما قلنا أصبحت عنوانا عاماً يُتعصَّب إليه وانتماءً يحقق المكاسب وتبنى عليه الأفكار والتشكيك به يقود إلى التشكيك بكثير من الأمور الأخرى لذا كان لا بد للتطورين من الترميم بدل إعادة البناء، وقد نُقضت جميع تلك الترميمات تحت ظل التطور في علم الوراثة.

إضافة إلى أن التكيف يحتاج إلى وقت طويل لحصوله وأحيانا يحتاج الكائن إلى عدة تكيفات في تكوينه ليناسب الوضع الجديد، فالسمكة التي يرى دارون أنها تطورت إلى الزواحف لا يسعفها الوقت لتتكيف رئتها لاستنشاق الهواء بدل الماء، ولا نظامها الأيضي ليناسب درجة الحرارة على اليابسة، ولا جهازها الهضمي ليناسب الغذاء الجديد، ولا أطرافها لتتحول بسرعة إلى أقدام بدل الزعانف، وحتى لو فرضنا أنها طورت بعض أجزائها بسرعة فكيف تسنى تطوير جميع الأعضاء مع الوضع الجديد ثم انتقال هذا التطور إلى الأجيال اللاحقة؟ إنه احتمال غير مقبول بفضل ما نعرفه من علم الأحياء والطبيعة اليوم، أما في منتصف القرن التاسع عشر وبدايته فلم تكن المعطيات العلمية كافية لنفي هذه الفكرة.

(٤) ومن الأمثلة التي كانت تؤيد نظرية التطور مشاهدة نشوء كائنات جديدة من مواد مخالفة كنشوء اليرقات من بقايا الطعام وغيرها، وكانت رؤية دارون للخلية بسيطة مفادها أن الخلية عبارة عن كيس صغير يتضمن الماء أو أي سائل آخر وأن من تجمع الخلايا وترتيبها تتكون الكائنات الأعقد.

إلا أن هذه الفكرة لم تلبث إلا سنوات قليلة ثم اكتشف المجهر وبيّن أن اليرقات لا تنشأ من الطعام أو تتطور منه بل من

بيوض منتشرة في الهواء وغيره تنمو مع التغذية، ومع اكتشاف المجهر ظهر أن الخلية الحلية نظام معقد جداً لا يمكن أن يكون قد نشأ من الصدفة والترتيب العشوائي.

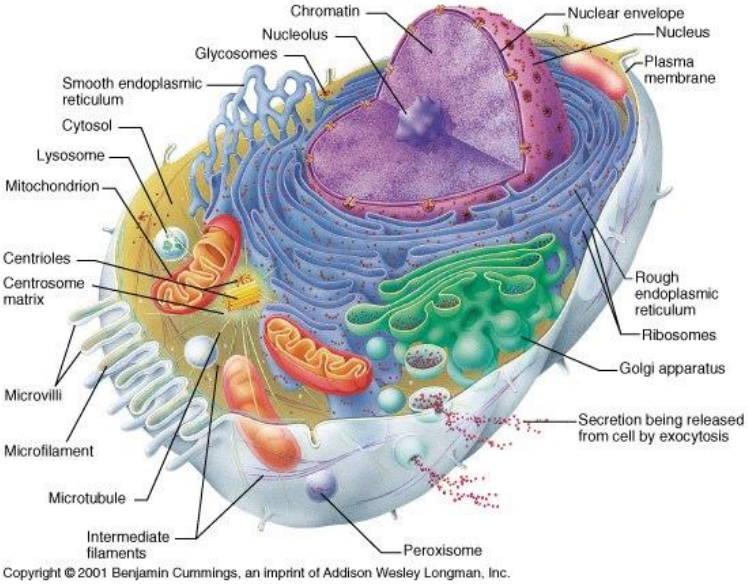

Copyright © 2001 Benjamin Cummings, an imprint of Addison Wesley Longman, Inc.

ومن حسن التوفيق أني شاهدت الليلة الماضية تقريراً علمياً عن محاولة عدة مختبرات من عدة جامعات مثل جامعة هارفرد وغيرها قاموا بتجارب لبحث إمكانية نشوء خلية واحدة مهما كانت بسيطة وقاموا بتجارب واختبارات كثيرة ومثلوا الظروف البيئية التي

يفترض أنها ساعدت في تكوين أول خلية، فأثبتت تجاربهم أنه لم يكن من الممكن تكوين تلك الخلية البسيطة فانتقلوا إلى احتمالية أن تكون الحياة قد جاءت من الفضاء الخارجي محملة على بقايا النيازك أو المذنبات المنفصلة عن كواكب أخرى، وهو ما يذهب إليه بعض التطوريين الجدد، ولكنهم بهذا (أي بافتراض مجيء الحياة من الفضاء الخارجي) أبعدوا الإحراج عنهم ولم يفلتوا منه لأن السؤال يبقى عن أصل تلك الحياة في الكوكب الذي قدمت منه، فإذا كانت ظروفه مشابهة لظروف تكون كوكب الأرض فيعود نفس الإشكال الذي اختبروه في تجاربهم وأدى إلى نتيجة استحالة تكون الخلية الأولى، وإذا كانت ظروف ذلك الكوكب مختلفة، فكيف ناسبت الحياة التي جاءت من بيئة مختلفة أجواء الأرض وتكيفت معها؟!. هذا مع صعوبة تصور حفظ الخلايا الحية محملة على النيزك بعد حادث تفتته من الكوكب الأصلي ثم اصطدامه السريع والمدمر بكوكب الأرض مع مروره بالفضاء الخارجي وتأثير الأشعة الكونية ونقص الأوكسجين والماء وغيره من مواد الحياتية البيئية المهمة في رحلة النيزك الطويلة.

ما هي نقطة التعارض مع كتب العهدين في نظرية التطور؟

(أعني التوراة والإنجيل الموجودين اليوم)

نطق القرآن الكريم بوجود التحريف في التوراة والإنجيل في عصر النزول، ذلك التحريف الذي كان متعلقاً بالبشارة بنبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أو ناتجاً بسبب الجهل والغباء والتأويل الخاطئ: [وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ](البقرة:٧٨)، وإلى وجود تساهل في الافتراء على الكتاب المقدس.

وليس القول بتحريف كتب العهدين مقتصراً على ما ذكره القرآن الكريم بل تطرقت بعض الدراسات الحديثة إلى وجود التحريف وقصده، وفوضى النسخ المتعددة للإنجيل، بل إن نفس نص التوراة الموجودة اليوم فيه ما يشير إلى أنها ليست من كتاب موسى (عليه السلام) مثل ما ذكر من أن يوشع دفن موسى ولم يُعرف قبره إلى اليوم، مما يشير إلى بُعد كتابة هذا النص عن وفاة موسى (عليه السلام)، بل تدخلت الثقافة العبرية في إضافة كثير من الأمور للتوراة الرائجة اليوم.

والظاهر من تأريخ اليهود أنهم في أيامهم الأولى لم يكن لديهم احترام لحدود النص، فكانت الإضافات والشروح لا تنفصل عن تدوين النص الإلهي.

ولا نريد الدخول في تلك التفاصيل إلا بمقدار ما نود الإشارة إليه من أن تعارض أي نظرية علمية مع نصوص كتب العهدين (التوراة والإنجيل) أو ما يفهم منهما رجال الدين لا يدل على نقض الدين وخطأ السفراء الإلهيين.

ولكن الواقع أن تصوير تعارض نظرية التطور مع نصوص التوراة والإنجيل يتضمن شيئاً من التهويل الذي لا واقع له، وافتعال معركة افتراضية لا وجود لها، وكثيراً ما وجدنا من ينساق إلى مثل هذه المعارك الافتراضية قبل أن يعرف سبب الخصام، وقد وجدت بعض الملحدين يرى أن اكتشاف طبيعة الإلكترون هي نقض لوجود الله؛ لأن المسلمين -بحسب قوله- يرون أن الله مثل الإلكترون، والإلكترون اتضح أنه يتألف من الكواركات وأنه مركب وليس بسيطاً فالله إذن غير موجود. فاستمع وتعجب! من هذه الافتراضات التي يضللون بها كثيراً من الشباب عن دينهم.

وأول ما افترضوه من تعارض بين النصوص الدينية ونظرية التطور: أنَّ كتب العهدين تشير إلى أن الله خلق السماوات والأرض

في ستة أيام، بينما تتضمن نظرية التطور مقدمات نصت على أن عمر الأرض أطول من ذلك بكثير، فيذكر دارون أن عمر الأرض ملايين السنين ثم اتضح حديثاً أن عمرها مليارات من السنين وأن عمر الكون أكثر من ١٢ مليار عام.

وهنا توجد مغالطة يمكن بيانها بعدة نقاط:

١- إن النصوص الدينية قالت إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ولم يقل أن عمرها ستة أيام، ففترة الإنجاز والإخراج وفق كتب العهدين ستة أيام ثم خرجت السماوات والأرض إلى عالم الخلق والخارج.

٢- ولو فرضنا أن المقصود بها عمر الأرض فلا دليل أن اليوم هو الـ(٢٤) ساعة المألوفة ولو كان المقصود كذلك لاستغرب المعاصرون لنبي الله موسى (عليه السلام) وعيسى (عليه السلام) أكثر استغراباً وهم يرون أن التأريخ قبلهم يمتد لآلاف السنين، بل إن منهم من يعتقد أن عمر الإنسان (آدم) بضعة آلاف من السنين قبل موسى (عليه السلام) .

٣- بل ذهب بعض علماء الإنجيل وهو سان أوغسطين إلى أن المقصود بالأيام الستة هي مراحل التأريخ المختلفة من آدم إلى

إبراهيم ومن إبراهيم إلى موسى ومن موسى إلى سليمان (سلام الله عليهم).. فتأويل الأيام ممكن بسهولة ولا يشكّل تعارضاً مع العلم.

وهناك بعض النقاط الافتراضية الأخرى للتعارض حالها حال هذه النقطة.

نعم، هناك تعارض بين ثقافة بعض علماء التوراة والإنجيل وبين علم الفلك الحديث من حيث مركزية الأرض ودوران الشمس حولها وطريقة الخلق، وكل ذلك ليس من نصوص كتب العهدين وإنما هو فهم بعض رجال الدين لها، وبعضه مما أخذوه من الفلسفة اليونانية وتبنوه وجعلوه ثقافة مفروضة على طلبتهم، ومع شيء من التعصب منحوه القدسية واعتبروا معارضته معارضة للدين ولكتب العهدين.

ومع إمكانية تأويل كل ذلك فلسفياً بأن مركزية الأرض المقصودة هي مركزية معنوية وليست مكانية، أو علمياً بحسب الهندسة اللاأقليدية والنموذج المكاني المعاصر. وأن تأريخ آدم (عليه السلام) لا يعني أنه أول المخلوقات البشرية بل كان قبله بشر مخلوقون ثم هلكوا ولم تبق منهم إلا المتحجرات... إلى غيرها من الدفاعات إلا أننا لسنا بحاجة لها الآن لأننا نؤمن بأنه ليس هناك تعارض بين التوراة والإنجيل الأصليين وبين الواقع العلمي

المكتشف، أما الموجود منهما اليوم فهو محرّف كما أسلفنا، ثم إن فهم رجال الدين لهما لا يعني واقع كتب العهدين، بل يقتصر على من يؤمن بهذا الفهم، وكذلك سيتبين لكم أن نظرية التطور بالانتخاب ليست قطعية الصحة بل نظرية ظنية محتملة لم تكتسب الجزم إلى هذا اليوم.

وإضافة إلى هذا نجد بعض رجال الدين اليهود والنصارى يرون أن آلية التطور هي الآلية التي اتخذها الرب لإيجاد المخلوقات، وبعضهم يراها آية من آيات الرب في الخلق، فاليسوعي بيير تيلهارد دي شاردن يقول: إن التطور هو الآلية التي يستخدمها الرب في الخلق. واليسوعي الألماني كارل راهنر يصر على أن التطور هو عمل الرب في تجديد الخلق. والكاثوليك، منهم من يقبل نظرية التطور ويصدر دوائر المعارف التي تدعم آراءهم هذه. وعلماء اللاهوت البروتستانت، منهم أيضا من يرى التطور على أنه دليل على قدرة الخالق ووجوده.

ويرى بعضهم أن نظرية التطور ذكرت في الإنجيل مع بعض التأويل والافتراض.

هل في ظاهر القرآن ما يعارض هذه النظرية ويتناقض معها؟ وهل فيه ما يؤيدها كما افترضه بعض الكتّاب؟

من حيث العنوان العام (أي البحث عن نظرية لفهم كيفية خلق الأحياء) يشجع القرآن على التفكر بالخلق والبحث عن بدايته قال تعالى: [قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ](العنكبوت : ٢٠) وقال تعالى: [وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..](آل عمران:١٩١) وقال سبحانه: [وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ](الشورى:٢٩) وقال عز من قائل: [أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ](الغاشية:١٧-٢٠) إلى غيرها من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي حثت على التفكّر وأثنت على أهله ومدحتهم أنهم أولو الألباب.

فالقرآن لا يتعارض مع التفكر ولا يخشى من تفكير الإنسان وتعقله بل هو يربي العقل ويساعد على التفكر ويلفت الانتباه إلى مواضع الانتباه، ولقد بذل الملحدون جهوداً كبيرة لسحب تعارض كتب العهدين مع العلم على القرآن، وحاولوا قدر

إمكانهم جعل الدين في مقابل العلم وأضلوا الكثير من السذج في هذا السبيل ممن يزدرد كل ما يُعرض عليه بلا تحقيق.

سببية الخلق في القرآن الكريم:

يحاول بعض الملحدين تصوير النزاع بين نظرية التطور والدين بادعاء أن الدين يرى أن الله تعالى خلق المخلوقات بلمسة مباشرة وبدون أسباب، فإذا اكتشف العلم أسباب كل حادثة فهذا يعني بحسب ما صوروه أنهم سحبوا البساط من فكرة الرب الخالق، فجعلوا الأسباب بديلاً عن الله تعالى.

ولا أعرف من المقصّر في الفهم هنا وهل المقصر أولئك الملحدون الذين لم يفهموا الدين والرؤية الدينية بشكل صحيح، أو المقصر هم متدينو الكنيسة الذين –ربما– كانوا يستغلون كل نقطة جهل في معرفة الكون لوضع (الرب) فيها، فيكون الخالق في نظرهم سد فراغ في جهل الناس، وهي رؤية بائسة جداً ومثيرة للشفقة تدل على فقر حملة الفكر الديني يومذاك في تلك البقاع، ولا عجب أن تهزم الكنيسة هناك أمام الفكر المادي، وكيف نعجب ونحن نعلم أن الديانة النصرانية حُرّفت ولم تعد كافية لإقامة الحجة على الناس.

أما في الفكر الإسلامي فإن الله تعالى لا يقف في تعارض مع الأسباب بل هو علة العلل الأولى ومسبب الأسباب ففي الدعاء: (وتسببت بلطفك الأسباب) وفي الحديث الشريف: (أبى الله أن يُجري الأمور إلا بأسبابها).

وقد ناقش الشيخ الشهيد مرتضى المطهري هذه الشبهة في كتابه (تأريخ المادية) ومن أراد التوسع في مناقشة الموضوع فليطالع ما فيه.

حتى الذين قالوا بالصدفة في خلق الخلية الأولى فإن الصدفة لديهم لا تعني عدم السببية المحضة المطلقة، بل بمعنى عدم التوقع وعدم القصدية من حيث العلل المحيطة بها والجهل بالأسباب الحقيقية، فالقول بالصدفة إذا ناقشناه بالدقة لا يؤدي إلى التعارض مع القول بخلق الله للكون.

هذا من حيث العنوان العام للتفكر في الخلق، أما من حيث موقف القرآن الكريم من نفس نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي فهناك ثلاثة مواقف متصورة هي: الحيادية، والتعارض، والتوافق. وجميعها تنظر إلى أصل التطور وليس إلى الآلية التي تصورها دارون للتطور وهي الانتخاب الطبيعي بتراكم الصفات المكتسبة عبر الأجيال:

(الموقف الأول) الحيادية: فقد ذكر السيد الشهيد الصدر الثاني في القسم الثالث من كتابه: اليوم الموعود (وهو الجزء الرابع من الموسوعة المهدوية) ذكر أنه ليس في ظاهر القرآن ما يعارض نظرية التطور، وذكر نديم الجسر في كتابه (قصة الإيمان) أن القرآن ليس فيه ما يعارض نظرية التطور.

(الموقف الثاني) المفترض هو التعارض: فقد رأى البعض أن قوله تعالى: [وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ.. فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً](الإسراء:٧٠) وقوله: [لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ](التين:٤) وقوله تعالى في خلق آدم [قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ](ص:٧٥) ففهموا أن تفضيل الإنسان على سائر المخلوقات لا يتم إذا كان متسلسلاً من سلاسل حيوانية فهو (الإنسان) منذ خلقه كان متميزاً بالعقل وهو كرامة الله له على كثير من المخلوقات، وأن خلق الله تعالى للإنسان في أحسن تقويم يعني في أقوم خلقة بصورة ناجزة منذ البداية، وأن خلق الله تعالى لآدم بيديه –وهو كما يظهر خصيصة لآدم دون سائر الحيوانات– فهو لا يناسب أن يكون متسلسلاً من مخلوقات أخرى.

وبعضهم يحتج بما ذكر من خلق آدم من تراب فيكون معارضا لفكرة تطوره من مخلوق آخر.

وبعض هذه الوجوه قابل للمناقشة.

(الموقف الثالث) التوافق: فقد احتج بعض الكُتّاب للتوفيق بين القرآن وبين نظرية التطور بقوله تعالى: [وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً..][المؤمنون:١٢-١٤] وقوله تعالى: [الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ..][السجدة:٧-٩] ففهموا من معنى السلالة التسلسل وأنه لا بد أن يكون التسلسل بين مجموعة كائنات.

وهو من إسقاط المصطلحات الحديثة (السلالات الحيوانية) على مفردات القرآن ويحصل من بعض الكُتّاب والمثقفين أحياناً حين لا تكون لهم إحاطة باللغة القرآنية، والأمر يحتاج إلى مؤونة كبيرة لإثبات التسلسل من هذه الآية، والأمر في هذا الفهم مجمل لا يمكن الاعتماد عليه.

فالسلالة اسم لما يُسَلُّ منه الشيء فيكون من أصله وتعني الآية في سورة المؤمنون أن جسم الإنسان استُل من مادة الأرض [وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً][نوح:١٧] أما سورة السجدة فتعني أن نسل الإنسان وذريته مستلة من ماءٍ مهين.

واحتجوا على التوافق بقوله تعالى: [مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً] (نوح:١٣-١٤) ففهموا من الأطوار هنا أطوار نشأة جنس الإنسان من مخلوقات أخرى، ولكنه بعيد عن لغة الخطاب القرآني ولو كان المقصود هو التسلسل التطوري لفهم ذلك جملة من المسلمين وكانت لديهم عنه أسئلة كثيرة وثقافة بشأنها، ولكن المقصود بالآية الكريمة -بأغلب الظن- هي أطوار الخلقة من النطفة والعلقة والمضغة ..

وبقي أن نشير إلى نكتة مهمة أشرنا إليها في بعض تعليقاتنا على أحد الإخوة وذكرناها في كتاب (الذِكر في سورة صاد المباركة) مفادها أن مفردة الخلق في القرآن عامة أعم من معنى الإيجاد المباشر قال تعالى: [ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً] (المؤمنون: ١٤) فقد أطلق سبحانه معنى الخلق على تغيير التركيبة، وقال تعالى: [أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ، أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ](الواقعة:٥٧-٥٨) فقد عبّر سبحانه عن خلق الجنين من المني بأنه من خلق الله ونسبه إلى ذاته المقدسة وأنكر على من يرى أنه هو السبب الوحيد لخلق الجنين.

وقال تعالى: [أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ](ق:١٥).

وكل ذلك نعلم منه أن مفهوم الخلق وتصوره يختلف في القرآن عما عليه الفهم الغربي للخلق وبالتالي لا تنطبق عليه جملة من التصورات الخاطئة التي واجه الملحدون بها الفكر الديني هناك.

ما هي الإشكاليات على هذه النظرية علميا:

قبل تناول الإشكاليات على نظرية التطور، لا بد من أخذ فكرة عن شروط النظرية في الوسط العلمي، وقد تعرضنا لهذا الموضوع في كتاب (الفيزيائيون والخالق) وسنتعرض له الآن بإيجاز بإذن الله تعالى.

فحينما تكون هناك ظاهرة مجهولة في العالم يحاول العلماء طرح نظرية لتفسيرها، وهذا الطرح يسد الفراغ الذي ولدته غرابة الظاهرة المجهولة، وتكون تلك النظرية أطروحة محتملة بأي مستوى من الاحتمال، وقد لا يكون للنظرية المفسِّرة للظاهرة أي مؤيدات وقد تكون احتماليتها واحد بالألف من الصحة، المهم أنها تسد الفراغ وتنجح في تفسير الحوادث التي يمكن تصنيفها ضمن عنوان تلك الظاهرة.

وشيء مهم في النظرية الاحتمالية أن من اللازم لها أن لا تتعارض مع أطروحات أكثر واقعية منها. ومعنى واقعية النظرية أن التجارب والملاحظات التي يرصدها العلماء ستؤكد أو تضعف تلك النظرية فتزيد من احتمالية صدقها أو تضعفها.

فالنظرية في طورها الأول هي فكرة محتملة ولا يهم ما هو منشأ خطور تلك الفكرة في ذهن العالم ولكن المهم أن يعبر عنها بلغة علمية وإذا أمكنه أن يصفها وصفاً رياضياً رقمياً.

فأي نظرية في الوسط العلمي لا ينظر لها بصورة مستقلة عن قيمتها الاحتمالية، وقد يتم تبنيها في المناهج الدراسية النظرية طالما ليس هناك نظرية أقوى منها، أما في الأوساط الثقافية العامية فمن الشائع أن تجد بعض الكُتّاب يؤمن بنظرية احتمالية إيماناً يقينياً وينسج عليها منظومة من الأفكار والقرارات المصيرية بشكل يثير السخرية والغضب أحياناً، وتكون تلك الأجواء الثقافية الخارجة عن حدود التخصص بِرَكاً عكرة لتصيد الغافلين وإنشاء التيارات الاجتماعية بحجة أنها تعتمد على اللغة العلمية بشكل يكسبها احتراماً في أذهان الناس ويُخدع بها البسطاء، ومن السخرية أنك تجد أحياناً من يحتج بنظرية عالمٍ ما على الإلحاد في الوقت الذي تجد العالم نفسه مؤمناً بالله تعالى إيماناً عالياً، فتجد مثلاً أن

بعض الملحدين يحتج بنظرية الكم على الإلحاد بحجة أنها هدمت المنطق بحسب زعمهم في الوقت الذي يقول صاحب نظرية الكم (ماكس بلانك): تحلّوا بالإيمان فإن الإيمان باب العلم، والعلم بلا إيمان أعرج.

والمهم أن نقول أنه ليس من المنكر أن يطرح عالمٌ ما نظرية في حقل من الحقول وتكون ذات احتمالية ضئيلة، بل ينبغي أن ننظر لهذه العملية والطرح بإيجابية، ولكن السلبية أن تظهر نظرية أقوى منها ونبقى على تمسكنا بالنظرية الضعيفة تعصباً وعناداً لالتزامنا بمواقف سابقة وخلافات غير علمية.

والنظر إلى النظرية شيء وتقييم عبقرية العالم شيء آخر، لأن العالم الذي يكتشف أن البقع الشمسية في قرص الشمس ناتجة من اضطراب في المجال المغناطيسي للشمس عام ١٩٠٨ من تحليل الأشعة الشمسية والأطياف الضوئية لشعاعها ليس كالعالم الذي يقيس التغيرات الكهرومغناطيسية اليوم بأحدث الأجهزة.

والعالم الذي يملك اليوم الحواسيب المعقدة والمجهر الإلكتروني والنظريات الممهدة الحديثة لا يحتاج إلى عبقرية العالم الذي كان يفكر بغياب كل تلك الآليات، وينبغي أن لا نحتقر العلماء الذين أنتجوا أفكاراً كثيرة قبل قرون اتضح خطؤها اليوم

بفضل التقنيات المساعدة الحديثة؛ لأن أولئك بذلوا وسعهم واعتصروا عقولهم أكثر مما نفعله اليوم، يقول (ثوماس) مؤلف كتاب (Calculus) الإصدار الثامن منه: (أن العالم يوهان كبلر (١٦٠٩) أنفق حياته لاكتشاف ثلاث قوانين تتعلق بحركة الأجرام الفلكية ولو كان لديه حاسوب مثل ما هو متوفر اليوم لاستغرق الوقت بضعة أيام). وكلام ثوماس هذا في بداية التسعينيات.

ومحل الشاهد أن وقت إطلاق نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي لم يكن هناك مجهر إلكتروني ولا ضوئي، ولا دراسات في الهندسة الوراثية والبايولوجيا ونظريات البحث العلمي والرياضيات ولا غيرها بالمقدار الموجود اليوم؛ لذا لا يكون من الغريب أن نسجل على نظرية التطور عشرات الإشكالات، وقد رفع العلماء اليد عن أصل النظرية وهو اعتمادها على آلية تراكم الصفات المكتشفة وراثياً وزوال الأنواع التي لم تتكيف، فاعتمد أنصار النظرية على فرضيات جديدة في تصور آلية التطور كالطفرة الوراثية والطفرة المفاجئة ومجيء أشكال الحياة الأولى من الفضاء وغيرها.. وأنشأوا نظرية للتطور جديدة تماماً عما كان يفكر به دارون ولم يبقَ من نظريته إلا اسمها حفاظاً على العنوان العام والإطار الذي تأطّر به صراعٌ امتد لأكثر من (١٥٠) عاماً.

وما سنطرحه من إشكاليات على النظرية لا يدل على ذكائنا في النقض والحل، بقدر ما يعبر عن تراكم المنتجات العلمية والاكتشافات التي أهّلتنا لتسطير الإشكاليات على النظرية وبيان ضعفها:

١ـ إشكالية علم الاحتمالات:

كان الكلام في تلك الفترة الزمنية -التي صدرت فيها نظرية التطور- عن احتمال نظريةٍ ما أو ضعفها يتم بصورة ارتجالية مجملة تعتمد على مقدار ما يحشده المتكلم من مؤيدات تقنع المتلقين لها، أما اليوم فإن اللغة العلمية أصبحت أكثر حدّيّة والافتراض المطروح ينبغي أن يُحسب بدقة، والاحتمال يُفترض به أن يحسب ضمن مجموعة المتغيرات المؤثرة بصورة رقمية دقيقة جداً.

وكان علم الاحتمالات مطروحاً قبل ذلك ولكن حساب الاحتمالات وتطبيقه في النظريات العلمية لم يكن معروفاً آنذاك.

وقد لجأ دارون في الإقناع بنظريته إلى الاحتمالات بصورة غير محسوبة حين تصور نشوء الخلية الحية الأولى بالصدفة وعلم أن ذلك النشوء بعيد الاحتمال فأجاب بأنه تم عبر ملايين السنين.

ولجأ إلى الاحتمال الإجمالي كذلك حين تصور تراكم التطورات الوراثية للصفات المكتسبة عبر ملايين السنين أيضاً.

وكانت تلك التصورات الطويلة لعمر الأرض أول ما عارض به ثقافة الكنيسة التي فهمت من بعض النصوص أن عمر الأرض مع عمر الإنسان وأنه من حين خلق آدم قبل بضعة آلاف من السنين من نزول التوراة.

وليست فكرة طول عمر الأرض من إنتاج دارون فقد ظهرت نتيجة تطور علم الجيولوجيا الذي بيّن أن التغيرات على القشرة الأرضية ليست وليدة آلاف من السنين بل أكثر من ذلك بكثير، وكان دارون على اطلاع بذلك فقد كان برفقته في رحلته على متن سفينة بيجل كتاب عن الجيولوجيا، وتذكر المصادر أنه كان معجباً به كثيراً.

ومع تطور علم الاحتمالات بعض الشيء ظهر إشكال على النظرية نتج من تطور فهم الخلية الحية لأنها لم تكن كما تصورها دارون مجرد كيس من الماء محاط بغلاف عضوي ولكن ظهر أن الخلية العضوية أكثر تعقيداً، واتضح من علم الاحتمالات إشكال قوي مفاده أن ملايين السنين بحسب الحسابات لا تكفي لصنع الخلية الأولى، فمرت نظرية التطور بموقف محرج من هذه الناحية.

واستمر هذا الموقف حتى الربع الأول من القرن العشرين حيث اكتشفوا أن عمر الكون قد يكون مليارات السنين وأن عمر الأرض خاصة قرابة ٤،٥ مليار عام، فتكون احتمالية نشوء الخلية بالصدفة ونشوء التراكمات الوراثية أكثر فسحة زمنية للحصول.

ولكن هذا الإنعاش لم يستمر طويلاً حتى تطور فهم الخلية أكثر وزادت دقة الحسابات في تقييم النظريات واتضح أن ٤،٥ لا تكفي مطلقاً لزيادة احتمالية الصدفة في نشوء أول خلية لأنها تساوي احتمال واحد إلى عشرة مرفوعة إلى أس (٩٥٠) وهو احتمال ضئيل جداً.

ومعنى حساب الاحتمال أن العلم يقدر احتمالية حصول الحادثة بحسب السبب المفترض في النظرية نسبة إلى الأسباب الأخرى ويعطي تلك الاحتمالية رقماً كسرياً مهما كان ضئيلاً، وتبقى مقبولية النظرية أو رفضها من شؤون العلم نفسه ضمن أطره ومقبولاته، ولكن اعتمادية النظرية تقل عند تقييمها في منظومة علمية أخرى، إذ حين يصدّر علم البايلوجيا فكرة الصدفة في نشوء الخلية الأولى إلى المنظومة المعرفية لسائر العلوم للاستفادة من هذه الفكرة في العلوم الأخرى فينبغي أن يصدرها مع احتماليتها المحسوبة لئلا يعطيها غير المختصين أكبر من الثقة المناسبة لها.

ومعنى حساب الاحتمال في توقّع النتيجة مثلاً أنك حين تريد اختيار مكان لجلوسك في مقهىً ما، فتؤخذ هناك عدة مؤثرات ينبغي حسابها للتنبؤ بمكان جلوسك الذي ستختاره والمقعد الذي ستجلس عليه مثل تفضيلك للجانب الأيمن بحسب ثقافتك الإسلامية، واختيارك للجانب البعيد عن الواجهة بحسب شخصيتك الانطوائية أو المُحبّة للظهور، والمنضدة الفارغة أو التي عليها بعض الزبائن، وأن تفضل عدم الجلوس قرب شخص مدخّن أو لا ، وغيرها من المؤثرات وكل منها محتمل وهكذا تقل احتمالية التنبؤ بجلوسك على هذا الكرسي أو ذلك كلما زادت المؤثرات.

وكذلك الأمر في احتمالية نشوء الخلية الأولى بالصدفة أي بدون سبب قاصد، فحينما كانت الخلية في نظر دارون بسيطة قبل اكتشاف المجهر الضوئي كان القول بأن (الصدفة مقبولة عبر ملايين السنين) وارداً، ولكن مع تقدم اكتشاف تفاصيل الخلية قلّ هذا الاحتمال كثيراً حتى وصل إلى أرقام ليس لها مسميات.

ومشكلة العقل البشري مع علم الاحتمالات أن ذهن الناس ليس دقيقاً ومناسباً مع معطيات هذا العلم، فقد تجد من الناس من يتأثر بمحتملات ضئيلة جداً، وقد لا يؤمن بمحتملات كبيرة جداً،

والعلمـاء أنفسـهم لا يتمتعـون بـالتجرد الكـافي لقبـول ورفـض الأطروحـات بحسـب قيمتهـا الاحتماليـة بسـبب التـأثر بالجانـب السايكولوجي من المعرفة في النفس. وربما سنتعرض لمناقشة هـذه العلاقـة فـي نظريـة المعرفـة بـين المعطيـات الموضـوعية للمعرفـة والانعكـاس السـايكولوجي لتلـك المعطيـات فـي الـنفس، ولكنـه سيشكل استطراداً عريضاً عن الموضوع نؤجله لوقت آخر إن شاء الله تعـالى. وبإمكـان القـراء مراجعـة كتـاب (الأسـس المنطقيـة للاستقراء) للسيد الشهيد الصدر الأول (قـدس سـره) للاطـلاع علـى الأفكار التي طرحها في المذهب الذاتي للمعرفة، ومن المفيد قراءة خاتمة الكتاب لمعرفة الهدف منه.

إلى هنا تم الحـديث فـي إشـكالية علـم الاحتمـالات علـى اقتضاب، بانتظار الخوض في إشكالية علم الوراثة وهو القسم التالي من هذه المقالة من التعرف على مناقشة نظرية التطور لدارون.

وبقي أن نشير إلى أن معنى إشكالية علم الاحتمالات علـى نظرية التطور إنما هو استبعاد الصدفة في حصول التطور بالانتخـاب الطبيعي أمـا إذا تصـورنا أن هنـاك عـاملاً مـؤثراً قاصـداً فالاحتماليـة تـزداد كثيـراً كـأن نتصـور أن العنايـة الإلهيـة هـي التـي حركـت الأحـداث وهيـأت الأسـباب لإنتـاج الأنـواع المختلفـة منـذ الخليـة

الأولى، أو أن النفس الفلكية الأولى هي التي حكمت التطور، أو أن العلة الغائية والرغبة النفسية هي المؤثرة، أو الزوار الفضائيون هم الذين أشرفوا على عملية التطور، فالاحتمال يختلف كثيراً.

ونتيجة هذه الخطوة أن الإيمان بنظرية التطور الموجود اليوم لدى كثير من غير المتدينين اليوم لم ينشأ من قوة النظرية الاحتمالية بل بسبب عدم وجود نظرية (مادية) في قبالها، ولو توفرت نظرية أخرى لتم رفع اليد عن نظرية دارون تلقائياً، ومما يزيد تمسكهم بها أن النظرية التي تحتل موضع المقابلة مع نظرية التطور وهي نظرية الخلق هي نظرية أشبه ما تكون بنظرية دينية، وأن الإيمان بها يعني التساؤل عن الخالق مباشرةً، لذا عضوا على نظرية التطور بالنواجذ حذراً من إعادة إدخال الدين في العلم وحذراً من أن ينتصر المتدينون لأفكارهم بالعلم الحديث، وهو أمر يتجه إليه العلم لا محالة لأن العلم بوابة الإيمان كما تقدم من قول ماكس بلانك.

٢ـ إشكالية علم الوراثة الحديث على التطور الداروينى:

لم يكن علم الوراثة في عهد دارون شيئاً يُذكر، كما لم تكن الآليات العلمية متاحة للبحث العلمي في هذا المجال، وأول

عمل مقنن هو نظرية مندل في الوراثة التي أجراها غريغور مندل (١٨٦٥) على أجيال متعددة من نبات البزاليا فاستنتج عدة ملاحظات مهمة تتعلق بتناقل الصفات بين الأجيال، ورغم أن الأضواء لم تسلط على ملاحظات مندل بشكل كافٍ في ذلك الزمان إلا أنها أثبتت أن تناقل الصفات الوراثية يتم عبر مورثات خاصة، ولم يكن الأمر كما تصوره دارون من أن الدم هو الذي ينقل الصفات الوراثية.

إن أهم أركان نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي ثلاثة:

الأول: إن الأنواع الحية جميعاً نشأت من أصل واحد وتطورت عبر ملايين السنين، مما يفسر التشابه الكبير بينها.

الثاني: إن آلية التطور هي الانتخاب الطبيعي الناتج من تراكم الصفات المكتسبة عبر الأجيال.

الثالث: إن الخلية الأولى التي هي الحد الفاصل بين المواد غير الحية والمواد الحية نشأت بالمصادفة.

والركن الأول هو جزء نظري تفسيري لم يجد دارون في سجل المتحجرات ما يفسره، فافترض وجود حلقات وسطية لم يتم اكتشاف متحجراتها بعد، وكان معذوراً وقتها لفقر متحف التأريخ

الطبيعي أما اليوم فسيأتي أننا لا يمكننا تأجيل البت في عدم وجود تلك الحلقات والتأكيد على ذلك.

أما الركن الثاني، فقد أجيب عنه في علم الوراثة وعلمنا أن الانتخاب الطبيعي لا يمكن أن يكون آلية للتطور وأن الصفات المكتسبة لا تورث. ولذلك لجأ الداروينيون الجدد إلى التعويض عنه بافتراض الطفرة الوراثية لصنع الأنواع الجديدة، وأشارت البحوث والتجارب الحديثة إلى عدم صلاحية هذا العامل وافتقاره إلى الإثبات العملي.

وأما الركن الثالث وهو الصدفة في صنع الخلية الأولى، فقد كان هذا الركن أسهل مؤونة في عهد دارون لأنه كان يرى الخلية الحية مجرد كيس يحتوي مادة حية أو ماءً، ولكن مع تطور علم الأحياء واكتشاف التكوين المذهل للخلية الحية مع اكتشاف المجهر الضوئي في بداية القرن العشرين أصبح احتمال الصدفة في صنع الخلية الأولى -مهما كان ضئيلاً- بعيداً جداً، وبإمكان أي مثقف في علم الأحياء أن يشعر بضآلة احتمال تلاقي المواد غير الحية لتكوين أبسط أنواع الخلية المفردة، وشبهها أحد العلماء باحتمال أن تصنع طائرة بوينج ٧٤٧ من هبوب عاصفة قوية على محل للخردة.

وأشار أحد علماء الأحياء الروس (أوفر) إلى صعوبة اعتماد الصدفة في صنع الخلية الأولى بقوله: (من المؤسف أن قضية الخلية الأولى أظلم نقطة في نظرية التطور).

وفي مقالة له في مجلة الأرض الأمريكية (شباط ١٩٩٨) التي تتبنى الدفاع عن نظرية التطور قال العالم الأحيائي جيفري بادا (Jeffrey Bada): (إننا ونحن نخلّف القرن العشرين وراءنا نواجه المشكلة نفسها التي واجهتنا ونحن ندخل القرن العشرين، ألا وهي كيف ظهرت الحياة على وجه الأرض).

وقد مرت عمليات استكشاف الخلية الحلية بمراحل عديدة ضاعفت الإشكال أمام نظرية التطور شيئاً فشيئاً، منذ أن نظر العلماء بالمجهر الضوئي إلى تكوين الخلية واكتشفوا كيف تتكون من بيوت لتوليد الطاقة (المايتوكوندريا) وأغشية دقيقة تتحكم بالمواد الخارجة والداخلة للخلية، وسايتوبلازم ذو قيمة حامضية مؤثرة في التوازن مع البيئة المحيطة، ونواة ونوية وغيرها.

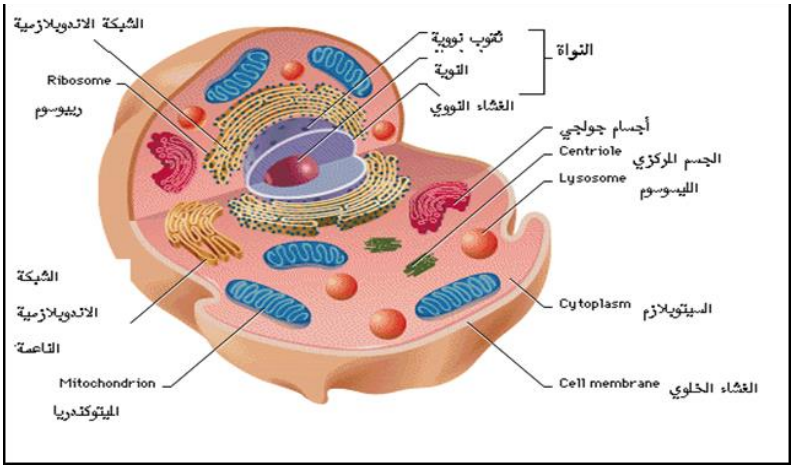

ثم في عام (١٩٥٩) تم اكتشاف مادة التوارث الأصلية التي تتضمن الصفات الوراثية وهي الحامض النووي (DNA)

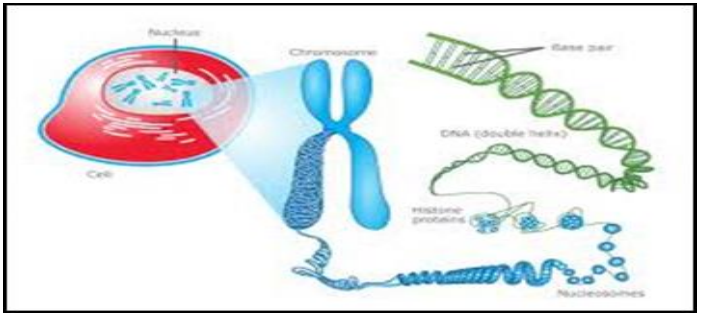

وكيف أنه يتكون من معلومات هائلة عن جسم الحيوان وكيف تتضمن كل خلية نسخة من تلك المعلومات، وتقدر معلومات

(DNA) في الخلية الواحدة فيما لو تم تسجيلها على الورق قرابة مليون صفحة من المعلومات، أما لو جمعنا معلومات أشرطة دي أن أي بما يعادل ملعقة شاي واحدة لكانت تعادل معلومات جميع الكتب المطبوعة على وجه الأرض.

ثم مع زيادة الاكتشافات حول آلية عمل الخلية والنظام الذي تتحكم به النواة أو النوية بعمل أجزاء الخلية وكيف ترسل النواة جسيمات دقيقة للمايتوكوندريا (بيوت الطاقة) لتأمرها ببدء العمل ثم ترسل لها جسيمات لتوقيف العمل وغيرها من الفعاليات، أصبح من المستهجن تصور الصدفة في تكوين الخلية الحية.

وقد ذكرت لكم في المقالات السابقة ما شاهدته من تقرير علمي على قناة (National Geography) حول تجارب متعددة إحداها في جامعة هارفرد (وهي الجامعة الأولى عالمياً) وكيف أنهم أعلنوا عدم احتمالية نشوء الخلية الحية الأولى بالمصادفة من المواد غير الحية التي كان يتصور وجودها على الأرض في أزمانها السابقة.

أما الطفرة الوراثية فقد أرادوا بها تقريب احتمالية تطور الأنواع وليس باستطاعة الطفرة تفسير نشوء الخلية الأولى، لأن الطفرة كما تصوروها تحصل عند تعرض الخلية الحية للإشعاع

فيتشوه الدي أن أي مما ينتج تغيراً في المخلوق الذي ينشأ منها، وحاولوا عبر عشرات السنين وآلاف التجارب تحصيل تغيّر واحد مفيد عن طريق الطفرة بقصف الخلايا الوراثية بالأشعة ولم يحصلوا إلا على كائنات مشوهة ليس بإمكانها التكيف؛ لأن الأشعة كانت تحطم سلاسل الدي أن أي ولا تبني أي صفة وراثية. وكانت التجارب التي تجرى على ذباب الفاكهة والأبقار وغيرها تنتج ذبابات بأجنحة قصيرة أو بقرة بقدم معلقة برقبتها أو أطفال مشوهي الأقدام، ولا يوجد أي مثال حي على تأثير الطفرة المجراة في المختبرات في إنتاج نوع جديد أو تطوير جزء مفيد من الحيوانات، فضلاً عن الأجواء الخارجية التي أقل عناية وأكثر عشوائية من المختبرات.

ويبقى احتمال الطفرة الوراثية بتأثير الأشعة على سلاسل الدي أن أي أبعد احتمالاً من غيرها وإنما يلجأون له من باب سد الفراغ في النظرية وعدم التسليم لافتراض القوة العاقلة المسيطرة على الطبيعة بالشكل الذي يقننه مؤمنو الغرب.

نعم لو تصورنا أن التكنولوجيا تطورت وعلمت كيفية خزن الصفات المتوارثة في الدي أن أي وتطورت إلى مستوى بناء أشرطة دي أن أي ذات معنى، فمن الممكن حينها أن يصمموا

صفاتاً جديدة للكائنات ولكنها تتطلب معرفة وترتيب كل ما يتعلق بتلك الصفات الجديدة في ذلك الكم الهائل من البيانات المخزّنة على أشرطة الحامض النووي، فإنك إن ضخّمت رأس الحصان مثلاً فإن عليك أن تقوي رقبته لتحمل الرأس الثقيل أو تخفيها تماماً، وينبغي أن تغير الظهر ليكون أقوى وربما عليك أن تصنع للحصان خرطوماً مشابهاً لما في الفيل ليشرب به الماء ثم عليك أن تقوي الساقين لتحمل وزن الرأس والظهر .. وهكذا..

وهي عملية لم تزل التكنولوجيا قاصرة عنها والبرمجة المعقدة لا تحيط بتعقيداتها فكيف نتصور احتماليتها في أجواء الأرض الأولى حين لا فاعل عاقل قاصد يومذاك كما يتصورون؟.

٣ـ إشكالية علم الوراثة على الصراع المتصور بين الأنواع:

قلنا فيما سبق أن تعبير دارون عن آلية التطور كان بعنوان (الانتخاب الطبيعي) ولكن أحد الشخصيات فضّل تغيير الاسم إلى (البقاء للأصلح) وعُبر عنه أيضاً بـ(الصراع من أجل البقاء)، ويعني دارون بالانتخاب الطبيعي كما قدمنا أن الأحياء حين تمر بها ظروف قاسية تحصل فيها تغييرات جسدية بسبب التكيّف، فالأحياء التي لا تتكيف تنفق، أما الأحياء المتكيفة فتنتقل صفاتها المكتسبة

إلى الجيل التالي، وتحصل في الجيل التالي تكيفات أيضاً، ويهلك من لا يتكيف، وهكذا حتى تحصل تطورات إلى نوع جديد كما تصوره دارون.

وتسمية دارون الأولى (الانتخاب الطبيعي) مناسبة لهذا التصور، أما الصراع من أجل البقاء أو البقاء للأصلح فإذا قبلناه فهو يعني صراع الأحياء مع الظروف القاسية من أجل البقاء، ويمكننا الاعتراض على التسمية بأن التكيف ليس صراعاً في الحقيقة بل هو خضوع وتكيف مع الظروف المحيطة، أما الأجيال التي هلكت فلم تهلك بسبب صراعها مع الأحياء الأخرى التي تكيفت بل بسبب عدم احتمالها للظروف القاسية.

وقلنا إن دارون –كما نقلناه من مصادره في ما سبق– تأثر بمقالات مالتوس بالاقتصاد، فأضاف لكتابه (أصل الأنواع) لمسات من ذلك التأثر شوهت نظريته، فتحدث دارون في (أصل الأنواع) عن متوالية تكاثر للأحياء تفوق متوالية زيادة الغذاء مع أن الواقع الذي شاهده يومها يشير إلى أن عدد الأحياء يبقى ثابتاً مما يدل على وجود معادلة توازن وتلك المعادلة هي التنافس على الغذاء والمكان، وهذه رؤية اقتصادية وتحليل مختلف عن منهج التفكير العلمي حتى المادي منه الذي لا يرى للطبيعة أي اختيار مجرد،

وليست هي رؤية بايولوجية كما ترون، وكيف كانت فهي خاضعة للمناقشة، فإن استقراء دارون للأحياء لم يكن كاملاً فهو لم يلاحظ أعداد الكائنات وتناسبها مع تغير الظروف المحيطة بها لفترات طويلة من الزمان فلعل في تأريخ الأحياء ما لا يساعد على هذه الفكرة.

كما أن ذلك التنافس المتصور سيؤدي ببعض الأنواع القوية (المفترسات) للقضاء على الأنواع الضعيفة كالخراف قبل أن يؤدي لتطورها إلى حيوان مفترس أقوى وبالتالي سنشاهد قلة الأنواع المختلفة قبل ولادة نوع جديد من الأحياء.

إن من يتأمل في كتاب دارون سيشاهد الخلط الموجه بين النظرية الصرفة لدارون وملاحظاته وبين ما أُريد لها أن تعبر عنه، الأمر الذي شوّه تلك النظرية بشكل مؤسف نستدل منه على التأثير الكبير للقوى الاجتماعية المتصارعة على الوسط العلمي، ونستكشف ذلك أيضاً من التسخير الكبير لهذه النظرية في النظريات السياسية والاجتماعية كما تقدم في بداية المقالات، فالانتخاب الطبيعي بنفسه لا يوحي ولا يبرر الصراع الذي كانت تقوم به قوى الغرب من أجل الاستحواذ على خيرات الشعوب، ولكن تحوير المصطلح والمفهوم إلى الصراع من أجل البقاء يسمح

بتقنين حملاتهم (الاستعمارية) ضد الشعوب تقنيناً علمياً بأنه صراع من أجل زوال الأنواع الضعيفة المتخلفة من البشر وبقاء الجنس الأكثر تطوراً لأن مصادر الغذاء محدودة فالبقاء للأصلح، وهم الأصلح برأيهم لأنهم الأقوى يومها، فيفهّمون شعوبهم ويقنعونهم بشرعية أعمالهم تحت ضغط القلق والخوف من الهلاك، وإضفاء صبغة علمية على جنونهم اللاهث وراء المال والسيطرة بأنه شيء طبيعي ومبرر.

كما يوحي مفهوم الصراع من أجل البقاء بمشاعر خفية تخالف الشعور الديني بالعدالة الإلهية والحكمة الطبيعية والإنصاف الأخروي؛ وبذلك فقد راهن عليها الملحدون كثيراً لمحاربة الشعور الباطني بالتدين لدى الناس ذلك الشعور الذي يتعزز بمشاهدة مظاهر الحكمة في خلق الطبيعية فيحاولون تشويه ذلك الشعور بشعور القلق والصراع من أجل البقاء.

والمردود السلبي الكبير والخطير في هذه النظرية هو أنها ستؤدي بالمنظومة الفكرية تلقائياً إلى الاعتراض على أصل الأخلاق والتعاون بين البشر وأن من تثقف بشكل مرسخ بنظرية التطور سيتساءل عاجلاً أم آجلاً عن مدى توافق الأخلاق مع النظام

البيئي المحيط وهل هي من الضعف الذي قد يؤدي إلى هلاكه في هذا الصراع الكوني المحيط؟.

وهذه النقطة مهمة جداً بل هي دليل مضاد للتطور بالصراع أو الانتخاب، إذ يوجد لدى كل إنسان عاطفة تجاه أولاده وتجاه الأجناس الأخرى وهذه العاطفة لها جذور في نفسه وهي من صفاته النفسية فكيف نتصور أنها تطورت مع سائر صفاته وهو يتطور عبر آلاف أو ملايين السنين من الصراع.

وتشير بعض النظريات الحديثة إلى أصالة التعاون والتكيف المشترك بين الأحياء وليس مستند تلك النظريات الاستدلال الفلسفي بل الواقع البيئي المرصود نفسه الذي يشير إلى أن الأحياء تتعاون فيما بينها من أجل البقاء.

ومن تلك النظريات نظرية التطور الكامل (Complete Evolution) (ظهرت عام ١٩٦٧) لعالمة الأحياء الأمريكية لين مارغوليس (Lynn Margulis) (مواليد ١٩٣٨) إذ لم تجد أي برهان صلد يدعم احتمالية حصول طفرات عشوائية صغيرة في قيادة تطور الأنواع الحيوية كما افترضه أنصار نظرية التطور في تعديلهم للنظرية فيما بعد دارون، بل وجدت مارغوليس أن البرهان موجود على تقافزات كبيرة مفاجئة كما لو أن التطور لم يحدث

كزحف بطيء ثابت مستمر، ولكن كتقدمات مفاجئة دراماتيكية تكيّفية، كما وجدت بأن التغيير التطوري لم يكن من العشوائية التي آمن بها الآخرون تقريباً.

وقد ركزت مارغوليس على مفهوم التعايش الحيوي (Symbiosis) أي أن الكائنين أو النوعين يعيشان في حالة تعاون مع بعضهما البعض من أجل مصلحتهما المتبادلة.

وقد عثرت على العديد من الأمثلة الأولية لنوعين اختارا العيش بتواجد حميمي متبادل الاعتماد، فنباتات الأشنة تكوّنت من طحلب وفطر عاشا بطريقة أفضل ككائن واحد قياساً بعيشهما كلاً على حدة، وكذلك البكتيريا الهاضمة للسيليلوز عاشت في القناة الهضمية للنمل الأبيض، ولم يتمكن أحد منهما من العيش دون الآخر بينما عاش كلاهما سوية، ولم يكن لهذه التسوية أن تتطور قط من دون اندماج تعايشي حيوي كما ترى مارغوليس، إلى عشرات من الأمثلة التي عززت بها نظريتها.

وقد عبرت لين مارغوليس بأن (الحياة لم تتملك الكرة الأرضية بالتنازع والتعارك، ولكن بالترابط والتعاون، كما أن اعتقاد دارون عن التطور المنقاد بنزاع الانتخاب الطبيعي ليس بالكامل)[1].

كما توجد ملاحظات عديدة تصب في هذا الاتجاه مثل ملاحظة تكيّف الأزهار بحسب ذوق الحشرات لتجذبها للتلقيح، مما يدل على أن التطور المفترض لم يكن وليد الدفع والتكيف الذاتي وإلا كيف عرفت النباتات بذوق الحشرات والطيور حتى أصبحت جميلة المنظر ومناسبة لمناقير بعض الطيور فيساعد وقوفها عليها وأكلها منها على مهمة التلقيح.

(١) قصة أعظم ١٠٠اكتشاف علمي على مر الزمن، كيندال هيفن، ص ٣٠٤.

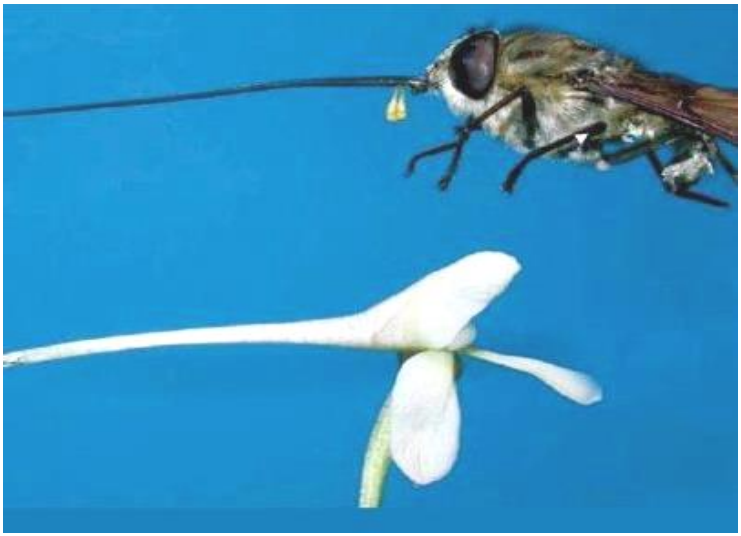

ومـن الاكتشـافات التـي تقـف علـى النقـيض مـع مفهـوم الصراع بين الأحياء نظرية النظام البيئي (Ecosystem) (١٩٥٣) لآرثر تانسلي (Arthur Tansley) الـذي أشـار إلـى أن جميـع الأنواع الحياتية في بيئة معينة فـي حالـة تواصـل مـع بعضـها الـبعض فالأعشاب أثرت في آكـلات اللحـوم الراقيـة والحشـرات الصـغيرة تفكك أجسام الحيوانات الميتة، وهكذا، فكـل كـائن هـو جـزء مـن نظام مغلق متبادل الاعتماد وأسماه تانسلي بالنظام البيئي[1].

(١) راجع المصدر السابق، ص ٢٤٩.

النظرية العلمية بين التفسير الذاتي وقياس التأثير الخارجي

قلنا في بعض مقالاتنا السابقة أن العقل البشري يميل إلى سد الفراغ الناتج من نقاط الجهل بالعالم المحيط لمجموعة عوامل سايكولوجية لا علاقة لنا بها الآن، ومن ذلك يُسمح بالافتراض في قبال الجهل المطلق، فتكون الفرضية مقبولة إذا ساعدت في سد الفراغ الذهني ولو بتصور خالٍ من أي مؤيدات، وتعتبر تلك الفرضية جواباً للسؤال عن الظاهرة المجهولة إلى أن يأتي جواب آخر في فرضية أخرى أكثر احتمالية من الجواب الأول.

وزيادة احتمالية كل فرضية تتم بزيادة الشواهد عليها من ملاحظة الوقائع التي تحدث في عالم الخارج، فإذا أفلحت إحدى الفرضيتين بتفسير الحدث الجديد كانت أرجح في القبول وإذا فشلت النظرية الأخرى في تفسيره أو كان فيها نقض لقانونها يتم رفع اليد عن النظرية الفاشلة.

مثال ذلك فرضية نيوتن في دقائقية الضوء فقد نجحت في تفسير بعض ظواهر الضوء وكانت منسجمة مع ميكانيك نيوتن فتم تبنّيها في الوسط العلمي، ولكن ملاحظة بعض الظواهر التي لا يمكن تفسيرها وفق ميكانيك نيوتن ونظرته الدقائقية للضوء رجحت كف نظرية أخرى لفهم الضوء تفسر الضوء بأنه موجات

كهرومغناطيسية، فماتت نظرية نيوتن للضوء وولدت نظرية الموجات الكهرومغناطيسية، ثم إن النظرية الجديدة فشلت في تفسير ظواهر تشير إلى سلوك دقائقي للضوء فلم يرجع الوسط العلمي للنظرية الأولى، بل انبثقت نظرية جديدة تنظر للضوء سلوكياً فترى أن له سلوكاً دقائقياً وآخر موجياً فظهرت النظرية الجديدة بديلاً عن النظرية الكهرومغناطيسية وهكذا.

وهنا نلاحظ أن الفرضية أو النظرية تعني تقنيناً عقلياً ينسجم مع النظريات الأخرى ضمن منظومة فهم الكون ويفسر الظاهرة أو الحدث الطبيعي.

وهنا ينبغي الالتفات إلى نقطة مهمة جداً وبالغة الخطورة تشكل نقطة ارتكاز في النقاش العلمي، وتعنى بتعريف (التفسير) المذكور.

فتفسير النظرية لظاهرة معينة يعني تفسير العلاقة الذاتية بين السبب والنتيجة، فأحياناً تفلسف العلاقة بشكل غير مادي (ميتافيزيقي أو روحي) وأحياناً تفلسف العلاقة بينهما بملاحظة الخصائص المادية لكل منهما، فيقال بحسب الأولى مثلاً أن الأرض تجذب القمر لوجود حب داخلي بينهما، ويقال بحسب الثاني أن الكتل الكبيرة كالأرض مثلاً تقوم بليّ المكان وطيّه

فتسقط الأشياء في تلك الطيّة وتبدو وكأنها تنجذب للكتلة الكبيرة تماماً كما تسقط الكرة المستقرة على قطعة إسفنج باتجاهنا لو ضغطنا على نقطة في الإسفنج.

والملاحظ على المنهج الثاني في التفسير عدة ملاحظات:

١- أنه يغض النظر عن السبب الذاتي الذي يجعل الكتل الكبيرة تطوي نسيج المكان، فهو يقول إن الكتل الكبيرة تفعل ذلك ولكن لا يشير إلى السبب الحقيقي (لماذا تفعله؟).

٢- إنه لا يتعارض مع التفسير الأول (الميتافيزيقي) الذي يقول (فرضياً) أن الجذب يحصل لعلاقة حب قديم بين الأرض والقمر، إذ بإمكان أصحاب فرضية الحب أن يتمسكوا بفرضيتهم ويجمعوا بينها وبين الفرضية الأخرى بأن الثانية تفسر كيفية الجذب ولا تفسر سببه، فالأرض تجذب القمر لأنها تحبه وتجذبه بطي نسيج المكان أو بوجود حبل خفي بينهما أو غير ذلك. ومن هنا نفهم أن بعض العلماء حين اتجهوا إلى التنكّر للتفسير الميتافيزيقي أو الماوراء المادي للأشياء لم يكن ذلك منهم لتعارض الاتجاهين، بل لوجود قوى معينة أرادت ضرب التفكير الديني الذي يرى أن الأشياء والكون يتحرك بالمشيئة الإلهية مباشرة، فأرادوا تصوير التعارض بين التفسير الذي ينظر إلى كيفية التأثير بين عناصر الكون (العلم

الحديث) وبين التفسير الذي ينظر إلى علّة التأثير وسببه الغيبي (الدين)، والحقيقة أنه لا تعارض بينهما كما عرفت، فالله تعالى (أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها) كما في الحديث الشريف، وكان إسحاق نيوتن يعتقد أن الله هو الذي صنع الآلة الكونية الكبرى، ويرى وجود دور متواصل للرب في هذا العالم ذي الطبيعة الآلية، لأنه لم يهدف إلى تقليص سلطة الله وحصرها في ابتداء الخلق، فقرر أن له دوراً مستمراً في إضفاء التوازن على حركة المنظومة الشمسية.. ويقول ليبنز (أن العلوم تعكس لنا عجائب الله قدرته وحكمته وعدله).

٣- إن القوانين التي تقيس العلاقة (قوة الجذب) بين الأرض والشمس لا علاقة لها بصدق أي من الفرضيتين (فرضية الحب المتبادل، أو فرضية طي المكان بسبب قوة الكتلة)؛ لأنها تقيس ظاهرة خارجية وتعطي لكل عنصرٍ محتمل التأثير رمزاً وتقيس تغيّر العناصر الأخرى بحسبه رقمياً وبصورة رياضية.

وقد تسقط النظرية التفسيرية ويبقى القياس الرقمي دقيقاً، لأن طريقة قياس (ميكانيك) الأشياء تكون تجريبية بتثبيت عنصر محتمل التأثير وقياس تأثر العناصر الأخرى ثم بتثبيت عنصر آخر

محتمل التأثير وقياس تأثيره على تغير سائر العناصر وهكذا إلى أن يُعطى لكل متغير ثابتاً تأثيرياً في معادلة القانون الرياضية.

ومن هنا انفصلت العلاقة بين الفيزياء النظرية والتطبيقية، لأن كثيراً من النظريات الفيزيائية في النظر إلى عالم الخارج لم تولد بقياسات تجريبية محددة، وإنما انصبت على تفسير الظواهر الكونية بغض النظر عن قياسها.

يقول ستيفن هوكنج عن نظرية الأوتار الفائقة: (أنها تحتاج إلى معجل نيوترونات بحجم المجموعة الشمسية لاختبارها) أي أن واضع النظرية لم يعتمد القياسات التجريبية لطرح هذه النظرية، وإنما امتدت النظرية على قدر كبير من التأملات والفرضيات والخيالات.

ويقول ستيفن هوكنج عن بعض أفكاره: (بعض النظريات التي ذُكرت في هذا الكتاب ليس لها براهين تجريبية أكثر مما للتنجيم، ولكننا نؤمن بها لأنها متسقة مع نظريات صمدت للاختبار)[1] ويقول عن نموذج العالم فينمان للمكان المحدب: (بأنه

(١) في كتاب (الكون في قشرة جوز).

ليس هناك دليل على صحة نظريته ولا دليل ضدها ولكننا نقبلها مجاملة له)[1].

ومن هنا نستطيع أن نفهم المغزى الحقيقي لمبدأ اللادقة لهايزنبرك، لأن العلماء الذين بحثوا في سلوك الدقائق دون الذرية لم يتمكنوا من تفسير سلوكها ومعرفة خصائصها بل قادتهم تلك الملاحظات في العالم دون الذري لإثبات تأثير الوعي في المادة، فتم إغلاق التفكير في تفسير تلك الظواهر بحسب الخصائص الذاتية، والاقتصار على قياس سلوكها. ثم أوجدت بعض المؤسسات الإلحادية فورة إعلامية كبيرة مفادها أن مبدأ اللا دقة فتح الباب للتكنولوجيا الحديثة وأنه لولاه لما استطعنا صناعة الترانزستور والمايكروويف وغيرها، والحقيقة كما قلنا أن قياس سلوك العناصر وميكانيكها لا علاقة له بتفسير الدافع الحقيقي لذلك السلوك، لأن الميكانيك هو قياس القوى والتغير والتأثير بغض النظر عن منشئه والخصائص الذاتية لعناصر منظومة العالم دون الذري.

وكان بالإمكان تطوير الميكانيك حتى مع توقف النظريات التي تفسر العالم الدقيق أو اختلافها أو اتجاهها نحو الميتافيزيقيا،

(١) في كتاب (موجز تأريخ الزمان).

لأن قوانين الميكانيك تعتمد كما قلنا على قياس القوى الناتجة لا على تحليل (لماذا) كانت.

وقد صيغ مبدأ اللادقة صياغة معقدة، لتضييع مغزاه الحقيقي حتى إنك قد تجد من هو حاصل على شهادة البكالوريوس في الفيزياء لا يدرك الهدف منه وعلاقته بميكانيك الجسيمات الذرية، بل دُرّس في المراحل الإعدادية كما في فيزياء الصف السادس الإعدادي العلمي في العراق التي درسناها أيام شبابنا. كل ذلك من أجل إيجاد زخم من الترويج الإعلامي يضلل العقول الباحثة عن الحقيقة العلمية ويسخّر العلم ظاهرياً ليوقفه قبال الدين، مع أن العلم يهتف بالإيمان والإيمان يهتف بالعلم. والله يتجلى في كل جزء من الكون للعقول وفي جميع الاختصاصات فأينما اتجه الإنسان بعقله سيرى الله سبحانه ويجد ما يدله عليه [وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ](القصص : ٥٩).

٤ـ إشكالية علمية في نقص الاستقراء الذي انتظره دارون:

لم تشهد الإنسانية الواعية سوى شيئاً يسيراً من تأريخ تكون الأرض، وسجل العلماء استقراءاتهم ضمن فترة زمنية قصيرة جداً، بل لم تتوفر التحليلات والفحوصات الدقيقة إلا مؤخراً.

أما الماضي السحيق فقد استنتجه العلماء استنتاجاً فجمعوا المتحجرات المتبقية في الأرض رغم تحولها الكبير من مواد عضوية إلى متحجرات، وقاسوا نسبة الكاربون ١٤ المتبقية في المتحجرات لمعرفة ما تحول منها فاستنتجوا عمر تلك المتحجرات، واستعانوا بنسب المواد المتبقية والمتراكمة عبر طبقات الأرض لمعرفة طبيعتها قبل آلاف وملايين السنين، وكل هذه الأمور فيها نسبة من الاحتمالية، وكلما تقدمت وسائل البحث والفحص التأريخي كلما قلّت مستويات التخمينات.

وقد يواجه العالِم في اختصاص معين منطقة فراغ في الطبيعة التي يفحصها فيملأها بنظرية فرضية هي خيرٌ من منطقة الفراغ بالتأكيد وستشكل جواباً احتمالياً مؤقتاً (فرضية) إلى حين ظهور نظرية أخرى تتوفر لها من المدعمات والملاحظات والتجارب ما لم يتوفر للنظرية الأولى.

ومع تطور وسائل الفحص والاختبار تنسحب بعض النظريات التأملية الافتراضية التي أقيمت على خيال افتراضي باحترام أمام النظريات الجديدة المقامة على ملاحظات واختبارات ووقائع علمية أكثر.

وقد يكون العقل الذي أنتج النظرية الافتراضية الأولى المنسحبة أكثر إبداعاً وأقدر على سد مناطق الفراغ لقدرته التخيلية المنسجمة، قد يكون أكثر إبداعاً وأروع خيالاً من العقل الذي ينتج النظريات التي تتوفر لها البيانات العلمية الغنية لأن الأول استنتج مع قدر ضئيل من الوقائع المتوفرة بين يديه.

والوسط العلمي أصبح يتشدد أكثر في قبول النظريات ولا يرى حاجة للإغراق في الخيال في كثير من العلوم بسبب توفر أجهزة القياس إلا في بعض المجالات النادرة.

ومحل الشاهد هنا أنه لما كان دارون في عصر لا يملك من المعلومات شيئاً عما قبل التأريخ بل لا يملك فكرة عن عالم الأحياء المحيط به إلا تصنيفات بسيطة، فكان علم الأحياء وتأريخه يعاني من مناطق فراغ كبيرة جداً، الأمر الذي تطلب منه أن يسده باحتمالات كثيرة وخطوات خيالية واسعة، مما سبب جاذبية لنظريته في الانتخاب الطبيعي لأنها كانت تعبر عن خيال واسع ومنسجم.

وكان دارون بنفسه يشعر بنقص المؤيدات الواقعية لنظريته فهو قد افترض سلاسل طويلة من الانتقالات ومن المفترض أن يكون في المتحجرات المكتشفة عدد كبير من المراحل الانتقالية، ولكن أياً منها لم يكن متوفراً بين يديه، وكان من المبرَّر له أن يفترض ويتخيل بانتظار أن تأتي المكتشفات المتأخرة بتأييد افتراضاته، ولكن المشكلة أنه وحتى اليوم بعد قرن ونصف لم يُكتشف أي متحجر يمثل المراحل الانتقالية أما نماذج المتحجرات التي ظُنّ أنها تشكل مراحل انتقالية فاتضح بالكشف الشعاعي للكاربون ١٤ أنها ليست كذلك كما سيأتي بإذن الله تعالى.

قال دارون: (إن كانت نظريتي صحيحة فلا بد من وجود أنواع عديدة جداً من أحياء المراحل الانتقالية التي تربط الأنواع بعضها ببعض التي عاشت في السابق) وكان متحف التاريخ الطبيعي في زمانه فقيراً جداً للمتحجرات، أما اليوم فالمتحف يتضمن أكثر من مليار متحجرة لا يعبر واحد منها عن تلك المراحل الانتقالية، ولم يعد ممكناً في اللغة العلمية انتظار اكتشافات مجددة مع سعة البحث عن المتحجرات ووفرتها، لأن نظرية التطور بالانتخاب الطبيعي لو كانت صحيحة لوجدنا ما يؤيدها بكثرة فلا ننتظر نموذجاً أو نموذجين لتأييد النظرية أمام هذا الكم الهائل من

البيانات التي يبدو معها أن الكائنات ظهرت فجأة كما هي عليه دون تطور.

أما النماذج التي كانت تؤيد المراحل الانتقالية فمنها:

طير الأركيوباتركس (Archaeoptryx): وهو متحجر طير ليس له عظم قص، ويتضمن في جناحه مخالب وله أسنان، وظنّ التطوريون أنه حلقة الوصل بين الزواحف والطيور.

فلعدم وجود عظمة القص لديه فهو لا يستطيع الطيران إذن لأن العضلات التي تحرك الجناحين تعتمد على عظمة القص، أما والأركيوبتركس لا يمتلك هذا العظم فجناحاه إذن مرحلة انتقالية وليست للطيران.

والطيـــور لا تمتلـــك فـــي العـــادة مخالـــب فمخالـــب الأركيوبتركس إذن من بقايا أسلافه الزواحف.

وأسنانه كذلك لأن الطيور عادة ليست لها أسنان.

إن هذا التفكير كان مقبولاً في ذلك الزمان لنقص آليات الفحص الآثاري يومذاك أما اليوم ونقص المتحجرات بل ونقص البيانات عن خصائص الزواحف والطيور الموجودة اليوم لتصح المقارنة بينها.

فقد وجدوا أن هناك نوعين من الطيور التاووراكو (Taouraco) والهوتزان (Hoatzan) لهما مخالب للتمسك

بأغصان الشجر وهما طائران كاملا التطور لا يحملان أي صفة من صفات الزواحف، فالتصور بأن مخالب الأركيوباتركس من بقايا أسلافه الزواحف لم يعد مقبولاً.

والأسنان كذلك تعرضت لنفس النقد، لأن بعض الزواحف ليس لديها أسنان، وبعض متحجرات الطيور تشير إلى وجود أسنان لأنواع منها متأخرة عن الأركيوباتركس، مثل طائر أولولافيز (Eoalulavis) الذي هو أحدث من الأركيوباتركس بـ (٣٠) مليون سنة.

ويثبت الكشف الإشعاعي للمتحجرات أن الطيور الحديثة المعروفة اليوم والتي لا زالت حية كانت معاصرة لطير الأركيوباتركس بل هناك متحجرات لطيور أقدم منه.

بالإضافة إلى اكتشاف متحجرات لطيور الأركيوباتركس في أمكنة متعددة وهي تحتوي على عظم القص مما يعني أن تلك المتحجرة كان قد فقد منها ذلك العظم.

وقد تم التنازل عن اعتبار الأركيوباتركس مرحلة انتقالية بين الزواحف والطيور كما أقرّ ستيفن غولد و نايلز ألدردج وهما عالما متحجرات في جامعة هارفرد بأن الأركيوباتركس كائن حي

يضم في تكوينه خليطاً من السمات المتنوعة غير أنه لا يمكن اعتباره شكلاً انتقالياً.

الأحصنة المتعددة: (Eohippus) وهي مجموعة من الكائنات بحجم الثعالب تم تصويرها على أنها أسلاف لأحصنة اليوم كانت معروفة قبل (٥٥) مليون سنة، واتضح حديثاً أنها كائنات مختلفة لا رابطة بينها وبين بعضها ولا رابطة بينها وبين حصان اليوم، كما عرف بواسطة الكشف الإشعاعي أنها كانت كلها تعيش في زمان واحد وليست متطورة عن بعضها البعض. وقد تم رفع اليد عن سيناريو تطور الحصان عن تلك المخلوقات مؤخراً.

كما طرحت تخيلات عديدة للمراحل الانتقالية في أزمان متعددة وكانت تستخدم الرسومات التوضيحية لأجل توضيح النظرية وتقريب الفكرة ثم اتخذت تلك الرسوم عوامل مساعدة للّعب بخيال المتلقّين لإقناعهم بالتطور، رغم أنها مجرد خيالات رسومية منافية للواقع العلمي. واعترض عليها كثير من المختصين.

ولكن رغم ذلك بقيت الأفلام الرسومية الخيالية تصوِّر تطور الأركيوباتركس والحصان من ذلك التسلسل الافتراضي القديم؛ لترسيخ النظرية في النفوس بتلك الطرق غير العلمية، لأن أكثر الناس حين يشاهدون الرسوم ثلاثية الأبعاد فائقة التصيير

يساعدهم ذلك في الاقتناع لأن الناس ينسجمون مع الخيال في كثير من الأحيان حتى لتجد بعض الناس يتفاعل مع الفلم ذي القصة الحزينة عاطفياً إلى درجة البكاء وهم يعلمون أنها قصة افتراضية.

نعم ربما كان الخيال مبرراً في إزاء الفراغ التصوري للطبيعة أما اليوم فالوقائع العلمية تدل على عكس معطيات الخيال القديم لتسلسل الانتخاب الطبيعي، وما تلك التصويرات السينمائية والرسومية لحلقات المراحل الانتقالية إلا شائبة سوء في الحوار البشري والنقاء المزعوم لدوافع الوسط العلمي الذي لم تهذب في نفوس علماء الطبيعة كما تهذبت وسائل بحثهم العلمي والكشفي، فما يمنع من الغش والتدليس إلا خشية أن ينكشف الزيف من قبل غيرهم من الباحثين. كما أن سجل تدريس نظرية التطور الداروينية في الولايات المتحدة شاهدٌ لما تعانيه النظريات العلمية من تدخل السياسة في ترويج نظرية على حساب نظرية وعلى حساب الواقع العلمي، فإذا سيطر الديموقراطيون في الكونغرس ورئاسة الوزراء في أمريكا ازدهرت نظرية دارون واستُغلت لضرب التوجه الديني للجمهوريين، وإذا غلب الجمهوريون على الوضع هناك نزل سوق النظرية لأنها كما يرون تعارض نصوص الكنيسة المسيحية، بشكل مخجل جداً، مع ارتفاع سوق المروجين والتقارير العلمية والأفلام

الوثائقية التي تزدهر أيام الانتخابات الرئاسية تناصر الانتخاب الطبيعي أو تعارضه، ولا يدرك الحقيقة العلمية ويضع كل نظرية في نصابها الحقيقي من الاعتبار والاحتمالية إلا مجموعة قليلة من العلماء.

على هامش نظرية التطور: ثنائية التطور والخلق: هل تعني التناقض؟

تقدم فيما سبق أن تصور تطور الكائنات من بعضها البعض عودةً إلى أصل مشترك واحد كان معروفاً قبل دارون في الأوساط العلمية، ولم يكن هناك ما يؤيد هذه الرؤية سوى أنها منسجمة مع الخيال. فالملحدون يهربون من فكرة الخلق المفاجئ ويفضلون تصور سلسلة طويلة من الأسباب تبعد الذهن عن قبول لمسة الخلق المباشر التي تُصوِّرها ثقافة كتب العهدين، وكذلك هي مقبولة لدى كم هائل من المتدينين الذين يستبعدون التدخل المباشر للخالق بلا أسباب.

وقلنا فيما سبق أنه سواء أكان الله تعالى خلقَ الكائنات أو خلق آدم فقط من لمسة مباشرة، أو ضمن سلسلة طويلة من الأسباب والمراحل فالأمر لا يعارض خالقيته سبحانه على

الاحتمالين لأنه سبحانه (أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها) إضافة إلى ما قدمناه من فهم للخلق.

إلى هنا قد يبدو التطور هو خيار مقبول للمتدينين ولا داعي لدعوى تعارض النظرية مع خالقية الله سبحانه للكائنات، وإنما التعارض الحقيقي هو بين رؤية نظرية التطور للخلق وثقافة كتب العهدين وبالأخص التوراة. وبالتالي لا داعي للانجرار لمعركة بين التطور والدين الإسلامي، ومنه يظهر فشل الذين حاولوا استيراد المشكلة للوسط الإسلامي من تاريخ أوربا.

وما ساعدهم على ذلك أن التركيز الإعلامي والتثقيف للنظرية أظهر وكأنه لا خيار بين تصور خلق الكائنات بالتطور بالانتخاب أو غيره وتصور الخلق المباشر.

وهو خطأ كبير وقع فيه كلا الطرفين أي المدافعون عن الدين والمدافعون عن الإلحاد.

أما المدافعين عن الدين فقد انقسم رأيهم إلى موقفين:

الرأي الأول ادعى أن نظرية التطور قد قال بها القرآن الكريم وأنها منسجمة مع قوانين الكون، فقبل احتماليتها بشيء من القبول. ونقول لهؤلاء المتسرعين أن النظرية لم تثبت علمياً ولم تصبح واقعاً علمياً بعد، والتطور العلمي يكشف كل يوم عن حقيقة

علمية تعارض التطور، ونفس النظرية قد رُمّمت مرات عديدة ومع ذلك الفشل.

والرأي الآخر: عارض النظرية بدعوى أنها تعارض فكرة الخلق، وبيّنا أن هذا من القصور في تصور الخلق، وبيّنا في كتابنا (الفيزيائيون والخالق) أن الحاجة إلى الخالق ليست لإطلاق الشرارة الأولى فقط بل في ديمومة الخلق والكائنات لأنها مفتقرة في ذاتها عن استمرار الوجود ولا بد من فرض الخالق لقيامها، وأن عملية الخلق مستمرة ولمسة الخلق فوق الزمان والمكان.

أما الملحدون فقد تشبّثوا بنظرية التطور بقوة لتصورهم أن سقوطها يصب مباشرة في صالح المؤمنين بالخالق، قال عالم الأحياء مارك دانشكي (Mark czarnecki) وهو من أنصار نظرية التطور: (لقد أصبح سجل المتحجرات على الدوام عائقاً كبيراً أمام البرهنة على صحة النظرية فلم يُظهر هذا السجل في أي وقت من الأوقات أي أثر مما افترضه دارون من وجود المراحل الانتقالية فالأنواع ظهرت فجأة وهذا الوضع غير المتوقع أيّد وجهة نظر أنصار الخلق من أن الأنواع خلقت من قبل الله).

وهذه الروح البعيدة عن التجرد العلمي كانت عائقاً كبيراً عن تطور العلم بشكل سليم. وهي من التعصب الذي لم ينجُ الوسط العلمي منه يوماً من الأيام.

مع العلم أن الثنائية التي تصورها الطرفان بين الخلق المباشر والتطور ليست لازمة وأن من الممكن طرح عدة نظريات تتجاهل الصراع بين الفكرتين وتأتي بتصور جديد عن الخلق تخالف فيه تصور الخلق المباشر وتخالف تصور الخلق بالتطور، منها ما يفكر به البعض من أن التطور نشأ من تدخل كائنات فضائية ومخلوقات عاقلة من خارج الأرض جاءت ببذرة الحياة وأشرفت على تطويرها بآليات خاصة بهم في كل عهد. وهو احتمال على ضعفه أقوى من احتمالية نشوء الحياة من الصدفة ومن تراكب مواد غير حية بالصدفة حتى أصبحت على الشكل الأحيائي المعقد المشاهد اليوم. وهذا الاحتمال لا يعارض الإيمان بالخالق لأن التساؤل سينتقل للاستفهام عن بداية خلق تلك المخلوقات الفضائية وأنها لا بد لها من خالق.

المهم أنه يُخرج النقاش العلمي من قيود التعصب لنظرية قديمة تتوالى عليها النقوضات الكثيرة وينفق عدد كبير من العلماء وقتهم وجهدهم لتأييدها خوفاً من شماتة أنصار الكنيسة.

ولا نريد هنا أن نقدم خدمة للملحدين بطرح هذا الاحتمال لأن البعض يرى أن أنصار التطور قد أصبحت الزاوية التي يقفون فيها تتضيق عليهم شيئاً فشيئاً مع الكشوفات العلمية الحديثة في الوراثة مما يعني وفق وجهة نظر البعض أن تقديم هذه الأطروحة يعطيهم متسعاً من الهروب عن الإيمان بالخالق عن طريق نقطة الفراغ في التصور العلمي التي يملأها تصور الخالق.

إلا أننا نؤمن أن الخالق أعز من ذلك وأعظم وأن الحق لا ينتصر بالخطأ، بل ما نعرفه عن العلم أنه رغم تعثره في بعض الأحيان لا بد أن يقود إلى الله سبحانه، وأن عين الرعاية الإلهية قد أخذت بيد العلماء إلى مكتشفات العلم الحديث بشكل كبير حتى وجدنا أن بعضهم يعجز عن الإنجاز العلمي فيرى حل مشكلته في المنام، إلى غيرها من التوفيقات الكثيرة.

بل من الممكن الجزم بأن تصور الكون كنظام متسق من الأسباب والمسببات والقوانين أدلّ على الحكمة الإلهية من عالم مليء بالفراغات العلمية، لأن الله تعالى أراد للإنسان أن يكون خليفة في الأرض وأثبت جدارة مخلوقه على الملائكة المستغربين من قرار استخلافه بالمعرفة [قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسمَائِهِم](البقرة:٣٣) ومن البعيد أن الله سبحانه يكرم خليفته بهذه الكرامة ويجعله قائداً

للكون ويستعبده بالجهل ويحتج عليه بنقاط الفراغ في معرفته [وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ[1]] (التكوير:٢٢)، بل يكشف عن بصره غشاوة الجهل ليعرفه على الكون وما فيها لأن جميع المخلوقات أسماء تدل على الله تعالى.

وقد سمعنا في الأبحاث الأولى من جعل التطور دليل على قدرة الله وحكمته.

وقد انكسفت الشمس عند موت إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال بعض الأعراب لقد انكسفت الشمس لموت ابن محمد فلا شك أنه نبي، وجاؤوا وأعلنوا إسلامهم عنده، فصعد صلى الله عليه وآله المنبر وقال: (أيها الناس إن الشمس والقمر خلقان مسخران لا ينكسفان لموت أحد فمن جاء وأسلم لهذا فليرجع)، وهكذا يريدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن نقيم إيماننا على الحقيقة ولا ننصر الحق بالباطل والجهل.

إلى هنا أرجو أن لا يتسرع البعض فيظن أنني أميل لنظرية التطور، بل إني أريد أن يعلم الإخوة القراء من أصدقائي أن ما كان من نقضي لهذه النظرية وما سيأتي من نقض عليها لم يكن مني

(١) ضنين: بخيل.

تعصباً لمسبقاتي العقائدية مع قداستها ومع أنها أقيمت على أسس عقلية صرفة، بل أنا أؤمن أن العلم أينما سيتوجه سيقود إلى الله تعالى سواء في علم الأحياء أو الفلك أو الكيمياء أو الطب ..

كما أريد أن يتعلم بعض الإخوة الإنصاف عند الحوار والنقاش فنحن لا نخشى من العلم ولا من التفكير والأفكار بل ننظر إلى كل تلك القنوات بارتياح لأنها ستؤيد الإيمان في النهاية.

فمن عجيب ما نعرفه من الحقائق العلمية أن المسافة بين الشمس والأرض تساوي ٤٠٠ مرة بقدر المسافة بين القمر والأرض، وفي نفس الوقت فإن قطر الشمس يساوي ٤٠٠ مرة بقدر قطر القمر، ومن تساوي هذه النسب كون قطر القمر عند كسوف الشمس يغطي تماماً قطر قرص الشمس مما يسمح بدراسة سطح الشمس.

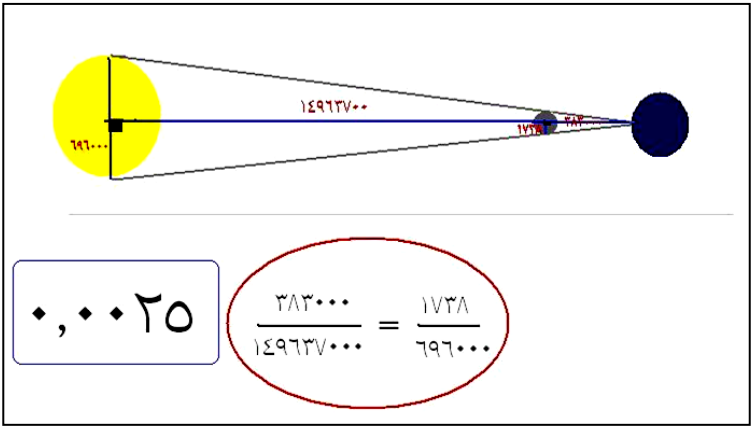

ولو كان قطر قمر أو قطر الشمس أو المسافة التي وُضع فيها القمر غير ذلك لما استطاع الإنسان الحديث معرفة ظواهر سطح الشمس وطبعتها، مما يعني أن هذه النسب وهذا الوضع المكاني مقصود من قبل العناية الإلهية لتعليم الإنسان معالم كونه، فالمسيرة العلمية للبشر منظور إليها بعين العناية من قبل السماء.

إلى غيرها من الأمثلة عن حقائق العلم والكون التي تجعلنا نتفاءل من التطور العلمي.

ونحن لا نخشى من الحوار لأن الحقيقة معنا في ذواتنا، والتعصب والغضب إنما يعني هروب الإنسان من نفسه لأنه يخشى أن تنهار ذاته فيخاف من أن يشك، وهو من عدم الصدق مع النفس، ولو كان الإنسان مؤمناً حقيقةً فسيزيد البحث عن الحقيقة

إشراق نفسه، فذواتنا لا نقومها نحن باختياراتنا الفكرية ولكنها متقومة بالحقيقة وهي منتمية لهذا الكون الفسيح فمعرفة الكون مرتبطة بمعرفة أنفسنا قال تعالى: [أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ] (الروم:٨).

فالكل يتجه إليه سبحانه [فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ](البقرة:١١٥) حتى الملحدين إنما يبحثون عن الله في حقيقتهم ويعترفون بوجوده بلسان حالهم تقرأ ذلك من غضبهم وتعصبهم وهروبهم، سئل ريتشارد دوكنز (حامل لواء الإلحاد) بما فحواه أن: ماذا تقول لو مِت وظهر لك أن الله موجود وقال لك لماذا يا رتشارد لم تؤمن بي وقد أنعمت عليك بكذا وكذا؟ قال: إذن لماذا لا يظهر لي.

وهذا الجواب منه يدل على أنه يؤمن مسبقاً بأن الله لا بد أن يكون ظاهراً لعبده، فهو في جميع ما يفعله يحاول أن يجبر الله على الظهور (ويتدلل) كما يفعل الأطفال، وتحت ضغط الشهوات والشهرة والمؤسسات التي تتبناه لا يستطيع إلا الهروب من نفسه ومن الحقيقة التي تقلقه حقيقة وجود الله في ذاته وفي كل ذات، الذي ظهر له بنفس وجوده ولو كان ظهر له أمامه لنقص سبحانه من خلفه ولو ظهر له سبحانه خارجه لفرغ منه داخله ولو ظهر له في

غيره لرأى نفسه شريكاً له في الوجود، ولكن ظهر له في حقيقته بلا شريك ولا منازع ولذلك هو يهرب من تلك الحقيقة هروب الأشقياء.

حقائق علمية واكتشافات أحفورية ضد أصل فكرة التطور:

كنا فيما سبق بصدد نقد مثبتات نظرية التطور وعلمنا أنها لا تمتلك المبررات الدلالية الكافية لتنهض كنظرية علمية يمكن الاعتماد عليها، فالنماذج التي قيل أنها مراحل انتقالية بين الكائنات اتضح أنها ليست كذلك كما في طائر الأركيوبتركس وغيرها، وقد طرحنا إشكالية علم الوراثة الحديث على مبدأ الانتخاب الطبيعي وأن الصفات المكتسبة لا تورث، وكيف عدّل (أنصار دارون) النظرية وقالوا بأن التغيرات تحدث بسبب الطفرة الوراثية ثم بيّنا أنه حتى الطفرة الوراثية لا يمكن أن تكون هي آلية التطور ولم تفلح -لحد الآن- آلاف التجارب في إنتاج طفرة وراثية واحدة ناجحة.

فالانتخاب الطبيعي كآلية للتطور فشلت من الناحية العلمية للأسباب المتقدمة، وعلمنا خطأ إصرار البعض على إطلاق اسم دارون على النظريات المستأنفة التي تحاول تفسير فرضية التطور

بالطفرة الوراثية وغيرها، ولكن قد يرى البعض أن مبدأ التطور نفسه لم يُنقض مهما ضعف احتماله، وأنه من الممكن أن نقبله حتى ولو لم نعرف آلية ذلك التطور خصوصاً وأن القول بتطور الكائنات بعضها من بعض أقدم من دارون وقد جعله بعض معاصريه من آيات قدرة الله تعالى.

والغريب أن تصور التطور يتمتع بقبول كبير في الثقافة العامة، وعند تحليلنا للعوامل التي ساعدت على قبوله وجدنا أنها عوامل من خارج علم الأحياء، كمشاهدة الفرد الاعتيادي للتطور التكنولوجي والتأريخي وتغير البيئة بالعوامل المختلفة وغيرها. وهو شيء مثير للسخرية فعلاً؛ لأننا وإن كُنا نؤمن بالتطور في تلك المظاهر ولكنه لا يعني أنه سينعكس على الكائنات الحية وتركيبتها الفسلجية، فالإنسان تطور ثقافياً وعلمياً بصورة كبيرة في الألفي سنة الأخيرة ولكنه لم يتطور فيهما من الناحية الجسدية، وكذلك قيل في الفلسفة بالحركة الجوهرية وهي سير جواهر الموجودات المادية نحو التجرد ولم يلازم ذلك تطورها جسدياً، فالتطور ليس مطّرداً من جميع النواحي كما هو معلوم لمن تأمل.

بالإضافة إلى أن هناك جملة من الحقائق والاكتشافات تقف بالضد من تصور التطور وهي تكفي للجزم بعدم حصول

التطور: منها المتحجرات المكتشفة التي تبين أن تلك الكائنات التي عُثر على متحجراتها هي نفسها المعروفة اليوم لم تتطور بشيء فالأعين التي كانت قبل ٥٣٠ مليون سنة للكائنات ثلاثية الفصوص التي عاشت وقتها لها نفس التركيب للنحل واليعسوب اليوم أي أن خلقة الأعين لديها كانت ناجزة كما هي للحشرات اليوم.

ومتحجرات العهد الكمبري الأخرى التي ظهرت قبل ٥٣٠ مليون سنة لم يكن قبلها كائنات أحادية الخلية كما هو مفترض ولم يكن لها سلف مشترك نتيجة الانتخاب الطبيعي، فكائنات العهد الكمبري ظهرت فجأة بحسب الكشف الإشعاعي للكاربون (١٤) دون أن يكون لها سلف مشترك أو سبب للظهور كما يقول العالم الأحيائي مارك دانشكي أحد أنصار التطور.

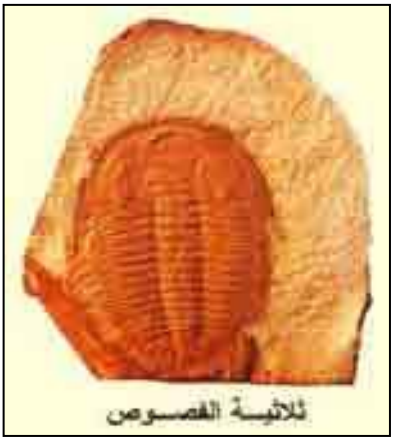
ثلاثية الفصوص

وحتى ألد أعداء الفكر الديني وأحد أنصار الإلحاد الأكثر إصراراً اعترف ببداية ظهور الكائنات المفاجئ في العصر الكمبري دون أن يكون لها أصل تطوري وهو ريتشارد دوكنز

في كتابه (The Blind Watchmaker) الصادر عام ١٩٨٦ صفحة ٢٢٩ من الكتاب قال: (يبدو أن الكائنات الحية للعهد الكمبري ظهرت كما هي دون أن تملك أي تاريخ تطوري). إلى غيرها من اعترافات العلماء حتى من أنصار التطور التي يبدو للمستمع إليهم بتعجب وغرابة كأنهم لا يجدون مناصاً من التمسك بالنظرية رغم أن عقلهم العلمي يبين لهم مواضع قاتلة في النظرية.

ويحتمل أنه الفراغ أو الخوف من العودة لهيمنة الفكر الديني على الأوساط العلمية بصيغته المسيحية، أو ربما غير ذلك.

ومتحجرة سمك القرش التي عاشت قبل ٤٠٠ مليون سنة تماثل تماما بنية سمك القرش المعروفة اليوم دون أن أي تطور في بنيتها.

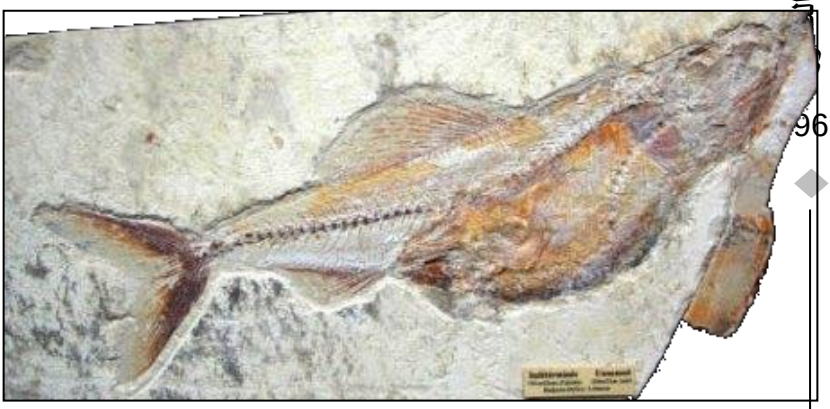

وكذلك حشرات النحل التي عاشت وظهرت في الأرض قبل ١٠٠ مليون سنة، وحشرة اليعسوب التي عاشت قبل ١٣٠ مليون سنة، والخفاش الذي ظهر قبل ٥٥ مليون سنة، كلها متماثلة مع تركيب الكائنات المعروفة اليوم منها دون أن يلاحَظ أي تطور فيها.

ومن أمثلة عدم التطور سمكة السولكانت التي جعلها أنصار التطور أحد أدلة فكرة التطور فترة طويلة وقالوا أنها كانت تمتلك أقداماً بدائية ونصف رئة، ولكن في عام ١٩٢٨ عثروا على هذه السمكة في المحيط الهادي ثم في غيره من المناطق تلك السمكة التي كانوا يظنون أن نسلها قد انقرض واتضح أنها تعيش الآن في الأعماق التي لا تقل عن ١٨٠ متراً وليس لديها رئة ولكن أضلاعها متوسعة بعض الشيء ولا علاقة لزعانفها ولا تشابه مع الأرجل التي تخيّلها أنصار التطور، ولا قدرة لها للاقتراب من اليابسة فضلاً عن الأهلية والاستعداد للتطور وأن يتطور جهازها التنفسي إلى رئة لحيوان بري وأعضاؤها إلى أقدام، ووجدوا أن لها نفس التركيبة التي كانت لها في المتحجرات التي عُثر عليها.

وغيرها من الكائنات التي تتماثل متحجرات المكتشفة مع أحفادها الموجودة اليوم.

وهو يعني أن مبدأ التطور قد انهار أيضاً ولا دليل عليه، خصوصاً وأنه غير ملاحظ في الطبيعة ولا يوجد دليل عليه غير أفلام الرسوم الخيالية التي تحمل على الاقتناع المزيف بالتطور، وهي أحد أهم أسباب القناعة بالتطور التي تُسجل في الاستبيانات، ذلك أن بعض أنصار التطور ولتأييد النظرية يُجري –بين الحين والآخر وكلما ظهر اكتشاف علمي يناقض التطور– استبيانات حول عدد المؤمنين بالتطور وحين تبدو النسبة عالية يُوهمون الناس بأن نظرية التطور أصبحت مبدأً علمياً مقبولاً، وكأن المسألة انتخابات برلمانية أو كأن التطور الأحيائي ظاهرة اجتماعية يستقرأ لأجلها

توجهات المجتمع، وهو خلط علمي ومغالطة كبيرة ذات أهداف سياسية معلومة. فيسجل كثير من الناس إيمانهم بنظرية التطور دون أن يكون لهم أي اطلاع على أفكار دارون أو من تبعه من علماء الأحياء لتأييد النظرية وليس لديهم فكرة عن نظريات علم الأحياء الأخرى أو أي نظرية بديلة، وأغلب المصوتين للنظرية يخلطون بين مبدأ التطور البايولوجي والتطور العام في التكنولوجيا والثقافة والتأريخ، كما أن منهم من شيّد تصوره للتطور واقتنع به اعتماداً على فلم رسومي صوّر له بسهولة تحول الكائنات ورفع الاستبعاد عن هذا التحول بالقول أن ذلك التحول حصل في ملايين السنين وهو رقم كبير يفتح احتمالات وتصورات واسعة لغير المختصين، وقد علمنا أن ذلك الرقم بل المليارات من السنين لا يكفي لإنتاج خلية بروتينية واحدة فضلاً عن خلية حية بسيطة تتألف من كم هائل من الخلايا البروتينية، فضلاً عن تكوين كائن حي واحد كالنسر والدب والفراشة..

قال صاحب النظرية جارلس دارون: (إن ظهرت أنواع عديدة من الحياة تعود إلى صنف واحد وفي وقت واحد فهذا يعد ضربة قاصمة لنظريتي التي ترى ظهور الأحياء من سلف مشترك نتيجة للانتخاب الطبيعي) في كتابة أصل الأنواع.

وإذا كان صاحب النظرية بنفسه يضع حدوداً لنظرية التي أقامها على أساس تصورات معينة واعترف أنها إذا تبين خلافها فقد انهارت نظريته، فإذا كان صاحب النظرية يقبل انهيارها فما بال بعض أنصار النظرية اليوم يتمسكون بها رغم انهيارها؟ وهل هو إلا الجنون أو التعصب أو الخيانة العلمية؟.

إكمال الحديث في الظواهر المناقضة لأصل فرضية التطور الأحيائي:

التكيّف هل يعني التطور؟ وهل التطور مفهوم بايولوجي أو سياسي؟.

ومن الظواهر التي تنقض مبدأ التطور الأحيائي أننا نرى جملة من الحيوانات تمتلك صفاتاً لا تشترك بها مع أي حيوان آخر ولا يمكن تصور تطورها من أسلاف سابقة، كنقّار الخشب أو إنقليس البحر الذي يمكن له توليد مئات الفولتات الكهربائية، أو الحشرات التي تولد ضوءاً خاصاً، أو تغيّر ألوانها بسهولة، أو تنفث السم، أو أن لها إبراً في ظهرها كالقنفذ، أو تولد روائح كريهة، أو تبث الحبر كالأخطبوط، وغيرها... الأمر الذي يشير إلى أن ذلك التنوع لم يكن وليداً لتطورات نشأت بسبب تراكم التكيفات وراثياً ولا أي تفسير آخر للتطور، وإلا لوجدنا معها أحياء أخرى تشترك بشيء من تلك الصفات.

ومن الصعوبات التي تتشكل صعوبة بالغة لتفسيرها: أنه إن كانت المخلوقات جميعاً تطورت من خلية أحادية واحدة ثم تطورت نتيجة التكيفات في البيئة الأرضية لكان من المفروض أن

يكون هناك نوع واحد من الأحياء في الأرض أو على الأقل مراتب متفاوتة التطور من الحيوان الواحد لا أن نرى اليوم الزرافة والأسد والنعجة والسمكة والحشرة والبكتيريا والصقر وغيرها... والملاحظ أن لكل منها صفاته ومميزاته الخاصة المتفوقة عن غيرها من الكائنات فالزرافة (تطورت) لتكون أطول رقبة لأطول حيوان في العالم، والصقر (تطورت) عينُه لتكون أقوى باصرة في الحيوانات.. وغيرهما من الحيوانات التي تمتلك كل منها صفات متفوقة عن غيرها؛ مما يعني أنه ليس هناك مسار واحد للتطور، وأن للتطور المفترض مسار خاص بكل حيوان، بل لا معنى لعدم تداخل المسارات حتى في داخل الصنف الواحد من الحيوانات. وهذه النقطة مهمة بالذات وكان من المنطقي أن يتجه إليها القائلون بالتطور وأعني أن للتكيفات مسارات خاصة بحسب البيئة وأنه ليس هناك حيوان متطور أكثر من غيره أو أن يكون هناك سلّم للتطور يقف الإنسان على قمته، فالإنسان يمتلك صفة الذكاء التي تميزه عن غيره، والسمكة تمتلك قدرة التنفس تحت الماء التي تتفوق بها على الإنسان، والطير يمتلك صفة الطيران التي يتفوق بها عن غيره..

وقد تقدمت في المقالات السابقة بعض نظريات الأحياء الحديثة التي ترى أن المخلوقات تتطور مع بعضها في نظام بيئي

متكامل، ومن هنا فلم يعد بإمكاننا النظر إلى مخلوق معيّن لمعرفة موقعه من التطور بمفرده، لأنه قد يكون تطور لأداء دور معين ضمن النظام البيئي، فتتطور فيه صفة لمصلحة كائنات أخرى.

كان هذا هو التصور الذي لا بد منه، ولكن التأثير غير العلمي على النظرية هو الذي جعل هناك خطأً واحداً للتطور الذي لم يعد مجرد تكيّفات خاصة بكل مخلوق لجعله مناسباً للبيئة المحيطة به، والأمر واضح لمن تأمل وأعني به الهدف السياسي الذي يريد القول أن الإنسان الغربي هو الأكثر تطوراً وأن الأفارقة أو العرب أو الشرقيين وغيرهم من أصحاب البشرة غير البيضاء (الملونة) هم أقل تطوراً من الإنسان الغربي الأبيض، لأن النظرية لو كانت ترى أن صفات كل شعب من لون البشرة والشعر وغيرها مجرد تكيفات لمساعدته في العيش في بيئته لما كان هناك معنى للتطور وتفوق الإنسان الغربي، لأن الأفريقي الأسود سيكون أنسب لبيئته من الإنسان الغربي أبيض البشرة، والصيني صاحب الشعر الخشن أكثر تطوراً في بيئته من الإنسان الغربي ناعم الشعر أو الأفريقي ملفف الشعر.. علماً أن هذه الصفات ليست تطورية بل بالإمكان أن تكتسبها أي فئة من الناس من بعضها بالتعايش في نفس البيئة وتناول نفس الطعام والامتزاج الوراثي بالتزاوج بينهم.

وذلك التوجيه السياسي في جنبات نظرية التطور هو ما يفسر لنا الدعم الاستثنائي لهذه النظرية من قبل القوى السياسية والاجتماعية التي كانت تروج للعنصرية، فقد وجدت تلك القوى أن صياغة دارون هي الأنسب لأغراضهم من غيرها من النظريات التي وصفت التطور، ولم يكن دارون بريئاً من التعصب للعرق الغربي بل كان يؤمن بقوة أن الإنسان الغربي هو الأكثر تطوراً من غيره وأن الإنسان الأفريقي هو الأقل تطوراً وأنه يجب أن ينقرض، وإن كان هو قد عبر عن زوال الإنسان الأفريقي بلغة مجملة، إلا أن القوى الاستكبارية كان لها أسلوبها في إزالة (الأجناس غير المتطورة) ولديها آليتها في (تطور الأنواع) ليس بآلية الانتخاب الطبيعي وتراكم الصفات المكتسبة بل بالسلاح والقتل والتجويع والاحتلال ونشر الأمراض الفتاكة والأسلحة المدمرة كما حصل مع (الهنود الحمر) والعرب وأفريقيا والصين والهند وغيرها.

إن الحوار مع العلماء سهل يسير حيث لا يكون هناك اعتماد على غير الدلائل العلمية ولكن الحوار مع السياسيين الذين يسخّرون العلم لصالح دعواتهم دون أن يكون لهم تلك الخبرة العلمية المناسبة، ويزيفون الحقائق ويوجهونها لمصلحتهم هي

المشكلة الكبرى التي يجب أن يتخلص منها الوسط العلمي في جميع الأكاديميات.

والمشكلة الأكبر في الحوار مع مجموعة من الشباب المغرورين المدافعين عن نظرية التطور ضمن حملات هدامة فكرياً يستلمون أوامرهم فيها من السفارة الأمريكية والمؤسسات الماسونية ومؤسسات المجتمع المدني المزيفة التي ترتبط بجهات ممولة مجهولة لنشر الإلحاد في المجتمع تحت عنوان العلمانية أو الحداثة، فتجد هؤلاء يخوضون في الحديث عن النظريات ويفهمونها وفق الرؤية الإلحادية المبطنة لهم دون أن يراعوا الفهم الصحيح للمصطلحات أو الاختصاص العلمي، وقد قرأت قبل قليل مقالة أشار عليّ أحد الإخوة بقراءتها حول السمك المسطح الذي تكون عيناه على جهة واحدة ويسبح بشكل مسطح ووجهه إلى الأعلى، ويستشهد كاتب المقال بها على التصميم السيئ في إشارة إلى الاستهزاء بنظرية التصميم الذكي التي يقول بها بعض علماء الغرب الموحدين.

ولا أعرف لماذا يسخر كاتب المقال من هذا التصميم وما العيوب التي اشتكت له منها تلك السمكة (سمكة الفلوندر) بل هي تمتلك مهارات عجيبة جداً فهي تموه شكلها بمهارة وتفترس بعض الأسماك الأخرى، وتغير جهة رأسها وتركيب جمجمتها بشكل مذهل، حتى أنني شكرت صاحب المقال عن تذكيري بهذه السمكة وعجائب الخلقة فيها، فهذا النموذج من التصميم دليل إضافي على الخلق العجيب، والغباء الأعجب للملحدين الذين أعماهم إلحادهم عن رؤية الجمال فتصوروه سوءاً وقبحاً، وكأنما هم يقيسون ذكاء الخالق (المصمم) بحسب ما يفهمونه من أغراض فإذا لم يفهموا الغرض من تصميم ما اتهموا المصمم بعدم الذكاء بدل أن يبحثوا عن سره بإخلاص.

ويستطيع صاحب المقال وفق هذه الرؤية المنحرفة أن يرى أن خلقة الفيل قبيحة لأنه ليس وسيماً، وخلقة الجاموسة ناقصة لأنها ليست سريعة كالغزال، وخلقة الزرافة غبية لأن رقبتها فارعة الطول...

وقد تقدم أننا ينبغي أن ننظر لصفات كل كائن ليس من منظوره الخاص بل من منظور عام، لنرى دخالة تلك الصفات في النظام البيئي المتضمن له، وهو ما نوهت به نظرية التطور المتكامل التي ترى أن بعض الكائنات تتعاون فيما بينها في النظام البيئي للعيش معاً فيساعد بعضها بعضاً على التطور، وقد أشرنا لهذه النظرية في الحديث عن إشكالية العلم الحديث على مبدأ الصراع.

نظرية الخلق:

تشكل هذه النظرية الجبهة المقابلة لنظرية التطور في الغرب، وكأنما تدل نظرية التطور على عدم وجود الخالق بينما تثبته هذه النظرية، وربما كان الجزء الحساس في نظرية التطور لدارون هو الإشارة إلى أن الخلية الأولى حصلت بالصدفة، بينما يبحث موحدو الغرب عن بصمة الإله في كل نقطة فراغ تفسيرية.

وقد علمنا أن جريان الأمور بأسبابها لا ينافي الإيمان بالخالق سبحانه، كما أن التدخل (المباشر) لله سبحانه في هذا العالم ليس على نحو الفعل الخارجي المجسم الذي ينتظره بعض المؤمنين السذج، لأنه سبحانه مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة، وفي كل شيء له آيةٌ تدل على أنه واحد، يكفي أن جميع المخلوقات في ذاتها مفتقرة إليه سبحانه في كل آن، فالحاجة والافتقار الذاتي للمخلوقات هي دليل الحاجة للخالق التي تحتاجه الممكنات ليس فقط في نقطة البدء ولكن على الدوام [إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ] (فاطر:٤١).

إلى هنا نكون قد طرحنا الأفكار الرئيسية التي أردنا قولها في هذا الموضوع تاركين التوسع به لأقلام أخرى، وفي ما مر كفاية بإذن الله تعالى.

جدول محتويات الكتاب

الموضوع	ص
مقدمة	٥
ما هي هذه النظرية؟ وما هو دورها في علم الوراثة الأحيائي وفي الثقافة العامة؟	١١
من سبق دارون في التفكير بالتسلسل والتطور:	١٦
ما هي مؤيدات نظرية التطور؟	٢٠
مؤيدات من خارج الوسط العلمي:	٢٠
المؤيدات العلمية:	٢٦
ما هي نقطة التعارض مع كتب العهدين في نظرية التطور؟	٣٤
هل في ظاهر القرآن ما يعارض هذه النظرية ويتناقض معها؟ وهل فيه ما يؤيدها كما افترضه بعض الكُتّاب؟	٣٩
سببية الخلق في القرآن الكريم:	٤٠
ما هي الإشكاليات على هذه النظرية علمياً:	٤٥
١- إشكالية علم الاحتمالات:	٤٩
٢- إشكالية علم الوراثة الحديث على التطور الداروينى	٥٤
٣- إشكالية علم الوراثة على الصراع المتصور بين الأنواع:	٦١

الموضوع	ص
النظرية العلمية بين التفسير الذاتي وقياس التأثير الخارجي	٦٩
٤- إشكالية علمية في نقص الاستقراء الذي انتظره دارون	٧٦
على هامش نظرية التطور ثنائية التطور والخلق: هل تعني التناقض؟	٨٤
حقائق علمية واكتشافات أُحفورية ضد أصل فكرة التطور	٩٣
إكمال الحديث في من الظواهر المناقضة لأصل فرضية التطور الأحيائي	١٠٠
نظرية الخلق	١٠٧
جدول محتويات الكتاب	١٠٩